

صنع الله إبراهيم
نبيل تاج

رحلة السندباد الثامنة

وقصص مصورة أخرى

دار الفتى العربي



رحلة السندباد الثامنة

وقصص مصوّرة أخرى

إلى محيي الدين اللبّاد ـ
الفنان والصديق

رحلة السندباد الثامنة
صنع الله إبراهيم ، و نبيل تاج
الطبعة الأولى ١٩٨٩
١٩٨٩ : دار الفتى العربي
القاهرة : ٩ شارع مديرية التحرير ، جاردن سيتي
هاتف : ٣٥٥٠٥٦٤ ، تلكس : 93064 TEAM—UN
بيروت : ص . ب ١٤/٥٢٣٦ ، برقيا : دفنشر
هاتف : ٣١٢٤٢٠ ، تلكس : 23220 ARABI—LE



رحلة السندباد الثامنة

وقصص مصوّرة أخرى

سيناريو : صنع الله إبراهيم

رسوم : نبيل تاج

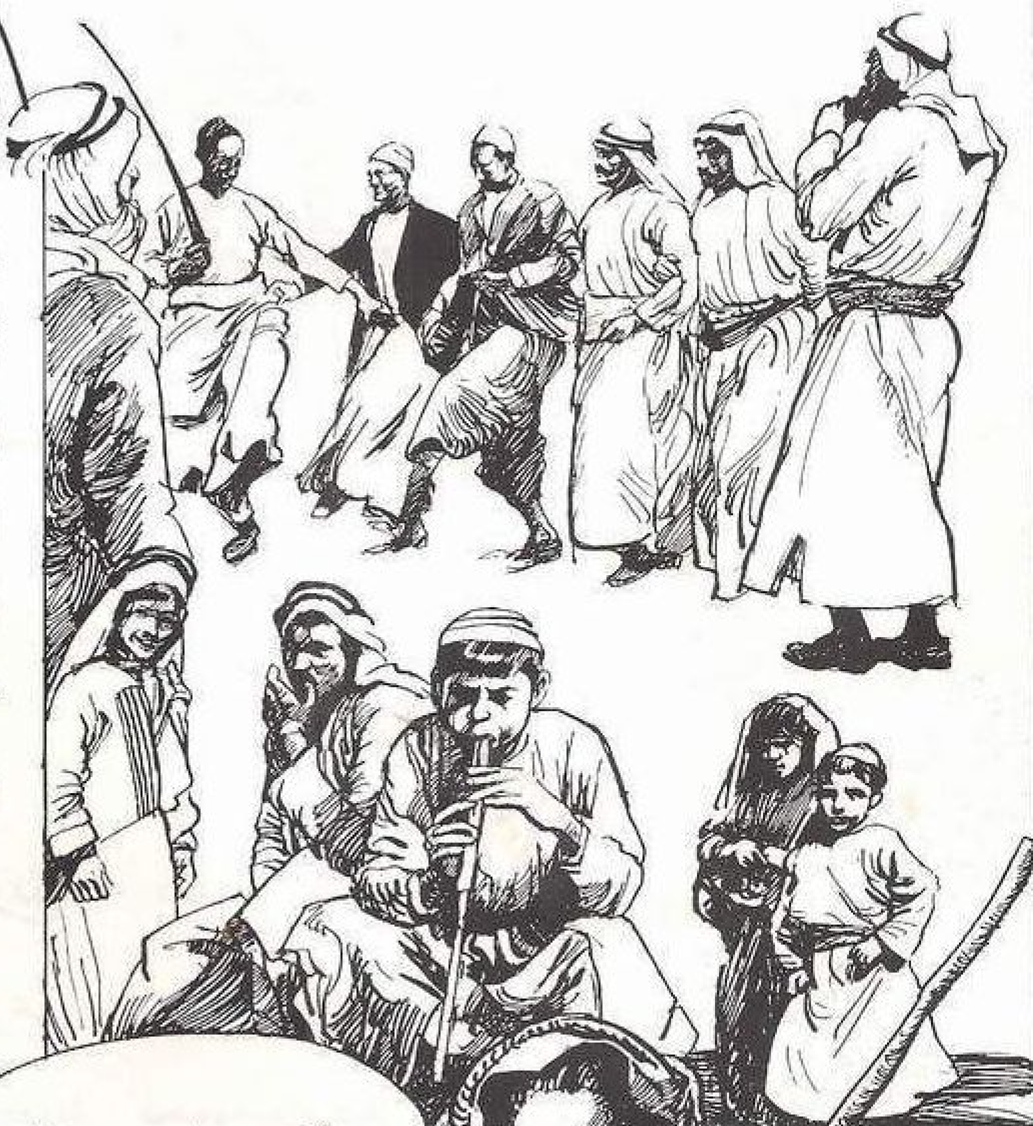
خطوط : محمود إبراهيم



دار الفتى العربي

فِلسْطينُ في القَلبْ





في ٢١ مارس (آذار) ١٩٣٠م.
أقيمتِ المهْرجاناتُ في أرجاء فلسْطينَ
احتفالاً بسفَرِ الوفدِ العَربيّ إلى لندن
لعرضِ المطالِبِ الوطنيةِ على السُّلطاتِ
الإنجليزيّة. وكانتِ المناسبة في قريةِ
«أرطاس» الصَّغيرةِ الواقعةِ جنوبيّ
مَدينةِ «بيتِ لحم» عِيداً حقيقيّاً.






لكنَّ البعضَ وخاصّةَ الشّبابَ كانَ لهُ رأيٌ آخرُ
إنّهم يُريدونَ إلهاءَنا بلُعبةِ المفاوضاتِ وإلّا فلماذا لم تتضمّنْ مطالبُ الوفدِ كلمةً عن الاستقلالِ أوْ وعْدِ بلفور ؟


وجاء الرد من الشيخ «سماعين» مختار القرية ومالك المظلة الوحيدة بها
سَنرى !
لاتسمعُوا لِكلامِ ابنِ الشَّيخِ موسَى ! الوفدُ يَحمِلُ كلَّ مطالبِنا ، والإنجليزُ مُستعِدّونَ لقبُولِها بما في ذلكَ إلغاءُ أحكامِ الإعدامِ على الوطنيّينَ ، ووَقفُ الهجْرةِ اليهُوديّةِ .


يا بدريّة .. يابدريّة
حِنّي علَيَّ .. حِنّي علَيَّ ..
وعُروبتنا يا بدريّة
غالية عليكِ .. وغالية عليَّ

وَخِلالَ الأيّامِ التاليةِ لم يكُن لأهلِ القريةِ مِن حديثٍ إلّا عن سفَرِ الوفدِ..





مرّتِ الأيامُ ببُطْءٍ، وتضاربتْ خِلالَها الأنباءُ الواردةُ مِنَ القدسِ



وانصرَمَ شهرٌ كامِلٌ، ثُمَّ تبِعهُ نِصفُ شهرٍ آخر. وفي ذاتِ يومٍ حمَلَ أحدُ القادمينَ مِن «بيتِ لحمٍ» نبأً عن برقيةٍ مُهمَّةٍ أرسلَ بها الوفدُ إلى اللّجنةِ التنفيذيةِ في القدسِ. وفي صباحِ اليوْمِ التّالي انطلقَ المختارُ إلى المدينةِ المقدسةِ التي تبعُدُ خمسةَ كيلومتراتٍ ليأتيَ بالخبرِ اليقينِ..



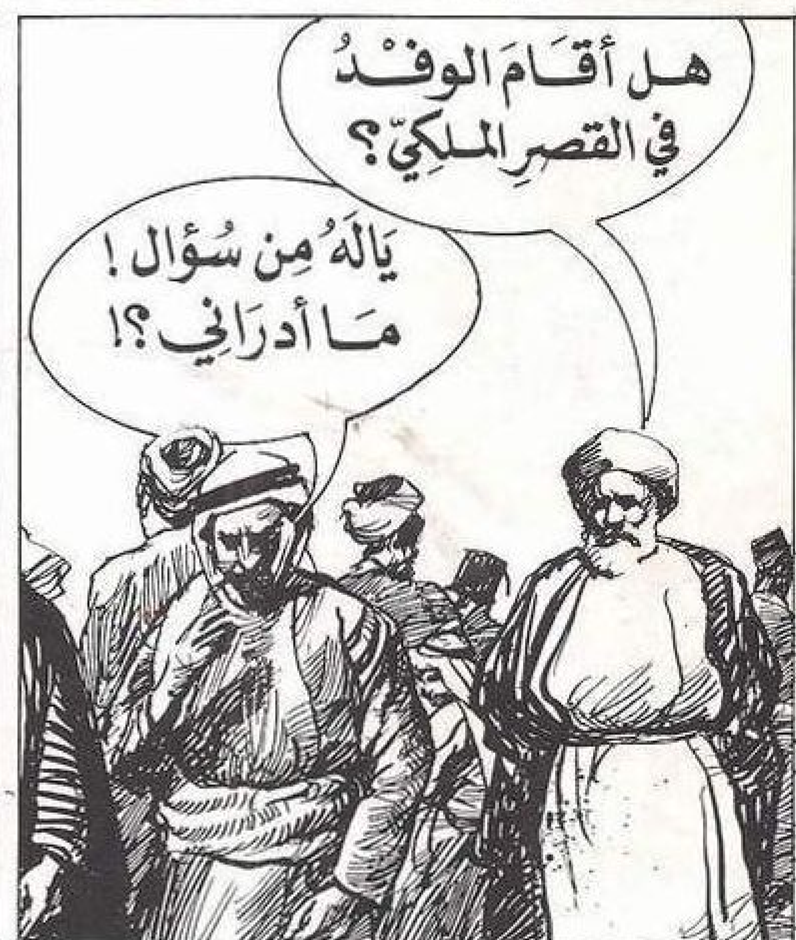

وعندما وصَلَ إلى القدسِ ألفى التوتر يخيم عليها


فقد أغلقتْ حوانيتُ المدينةِ القديمةِ أبوابَها، ورفعتِ الأعلامَ السوداء


وطوّفَ الإنجليزُ بالشوارعِ في صُورةٍ تهديديّة


وَلَمْ يَسْلَمْ هوَ نفسُهُ مِن أيْدِي الجُنود..


وأمام مقرِّ اللجنة التنفيذية..
بريطانيا أعلنتْ رفضَ المطالبِ الوطنيةِ وتمسّكَها بمصالحِ اليهودِ


هل أقامَ الوفدُ في القصرِ الملكيّ؟
يا لهُ مِن سؤال ! ما أدراني ؟!


وغادرَ المختارُ القدسَ مهمومًا
كيفَ سأنقلُ إليهم الخبرَ بعدَ أن أكّدتُ لهم نجاحَ المفاوضات؟


سيشمتُ بي ابنُ الشيخ موسى.. ماذا أفعلُ يا ربي؟

وعندما ولجَ القريةَ كان قد توصّل إلى حلّ ..
جتمع بالأهالي واسترسل في الحديث عن الاستقبال «الحافل» الذي لقيَه الوفدُ في لندن.



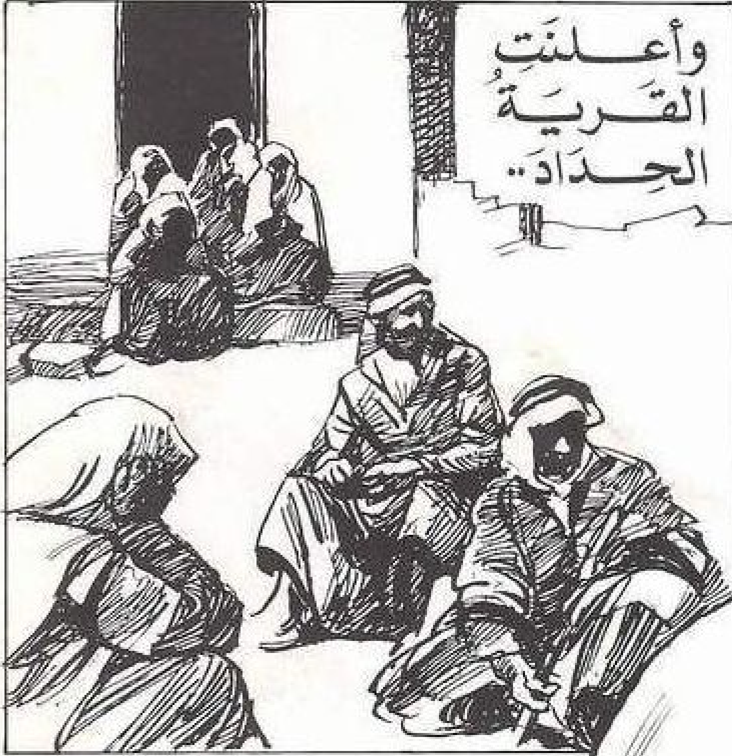


عندئذٍ قالتِ الملكةُ: "دعُوني أساعدكم". وطوتِ السّجادةَ منَ الشرقِ، وطوتها منَ الشمالِ ثمّ منَ الجنوبِ، وأخيرًا منَ الغربِ. ثمّ وضعتْ يدَها في الوسطِ وقالت: "فلسْطينُ في القلبِ، ليسَ لأحدٍ حقٌّ فيها .. لا الإنجليزُ ... ولا اليهودُ!"



تعالتْ صيحاتُ الاستحسانِ وعَمَّ القريةَ فرحٌ مشوبٌ بالقلقِ، ومَا لبثتِ الحقيقةُ أنِ اتضحتْ بالتدريجِ، وعادَ الوفدُ نفسُهُ إلى القدسِ يجرُّ أذيالَ الفشلِ. وبعدَ أيامٍ نفّذتِ السّلطاتُ الإنجليزيةُ حكمَ الإعدامِ في ثلاثةٍ من وطنيّي الخليلِ.

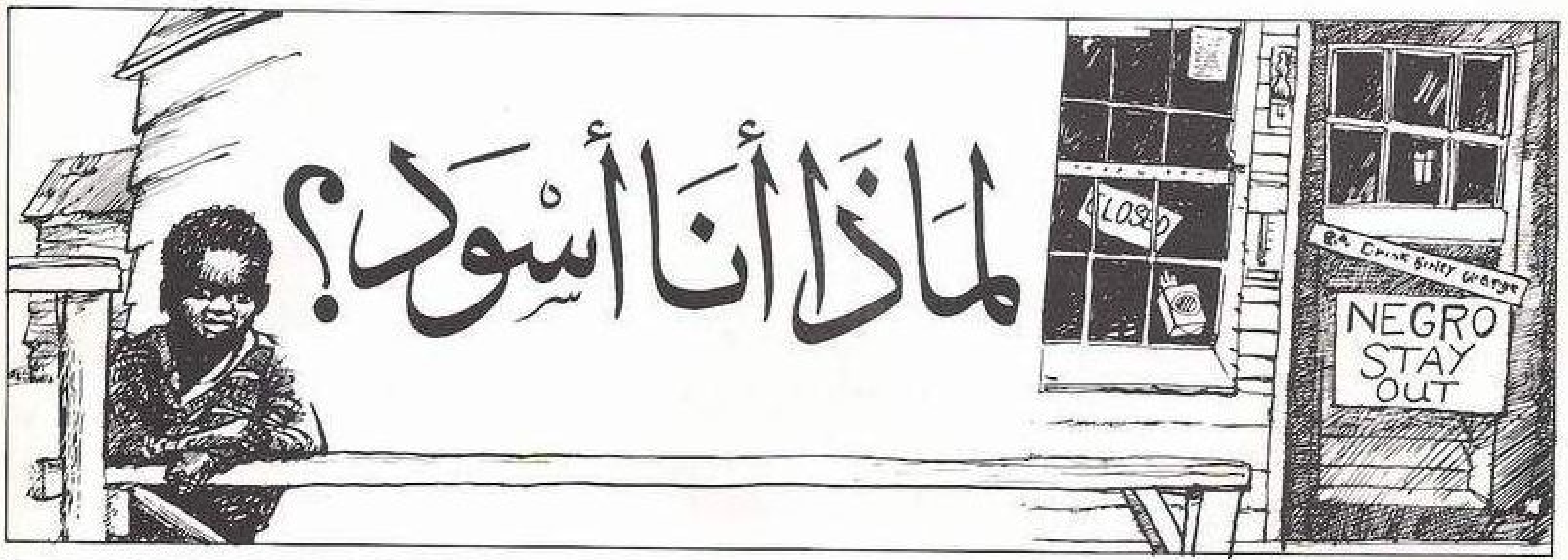
وأعلنَتِ القريةُ الحِدادَ ..



لم تكنْ تلكَ هيَ النكسةُ الأولى ولا الأخيرةُ في تاريخِ الشعبِ الفلسطينيِّ الحافلِ بالكفاحِ والتضحيةِ. وسرعانَ ماطرحَ أهالي «أرطاس» الحُزنَ جانبًا، والتفُّوا حولَ الشّيخِ عزِّ الدِّينِ القسّامِ.



الّذي كانَ يُحضّرُ لثورةِ ١٩٣٦ مِن مقرِّهِ في حيفا، لكنّهم لمْ ينسَوْا أبدًا قصّةَ المأدبةِ الملكيةِ التّاريخيةِ، وظلّوا يردّدونَها في استمتاعٍ كلّما تجمّعُوا في الأمسياتِ!



مِنَ السَّهلِ أَنْ تكُونَ طفلاً أبيضَ في مجتمعٍ مِنَ البِيضِ .. أوطِفلاً أسْوَدَ في مجتمع مِنَ السُّودِ .
وَلوْ كنتَ طفلاً أبيضَ وَسْطَ السُّودِ ، فلنْ تكُونَ هناكَ مُشْكِلة ..
المشْكلةُ تبدأُ عِنْدما تكونُ طفلاً أسْوَدَ - مِثلَ «أليكس» - في مجتمعٍ مِنَ البِيضِ ، وخاصَّةً إذا كانَ هذا المجتمعُ هوَ الولايات المتّحدةُ الأمْرِيكيَّةُ .



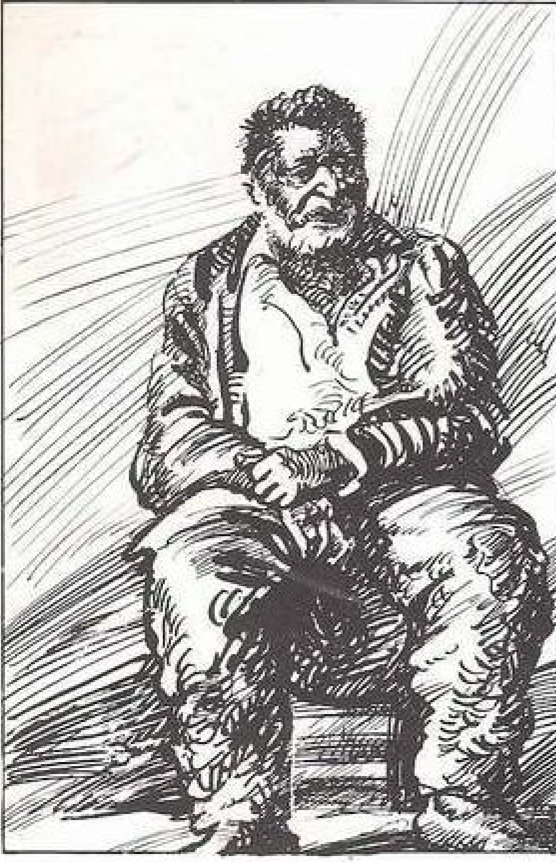




ثمّ إنّ جدّكَ الأكبرَ إفريقيّ .. وكانَ اسْمُه «كِينْتا» . وقدْ وُلِدَ بالقربِ مِنْ نهرِ «كامْبي بُولُونجو» . وعِندَما كَبِرَ قرّرَ أنْ يحجَّ إلى مكّةَ المُكرّمةِ .
وذاتَ يوْمٍ خرجَ يَحْتطِبُ فاختطفَهُ رجالٌ بِيضٌ .

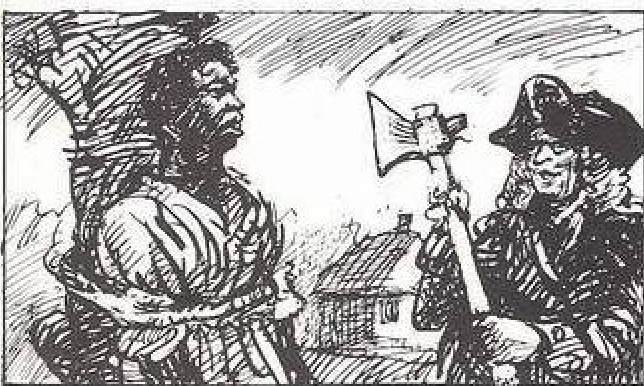


وَنقلوهُ مَعَ مِئاتٍ غيرِهِ مِنَ
الأسرىٰ الإفريقيّين في سَفينةٍ
إلى أمْريكا حيثُ بيعَ في المَزادِ
لأحدِ المزارعينَ البِيض ..
لكِنَّ جَدَّكَ الأكبرَ لمْ يَسْتَسْلِمْ
وَحاوَلَ الهَربَ عِدَّةَ مَرّاتٍ ..

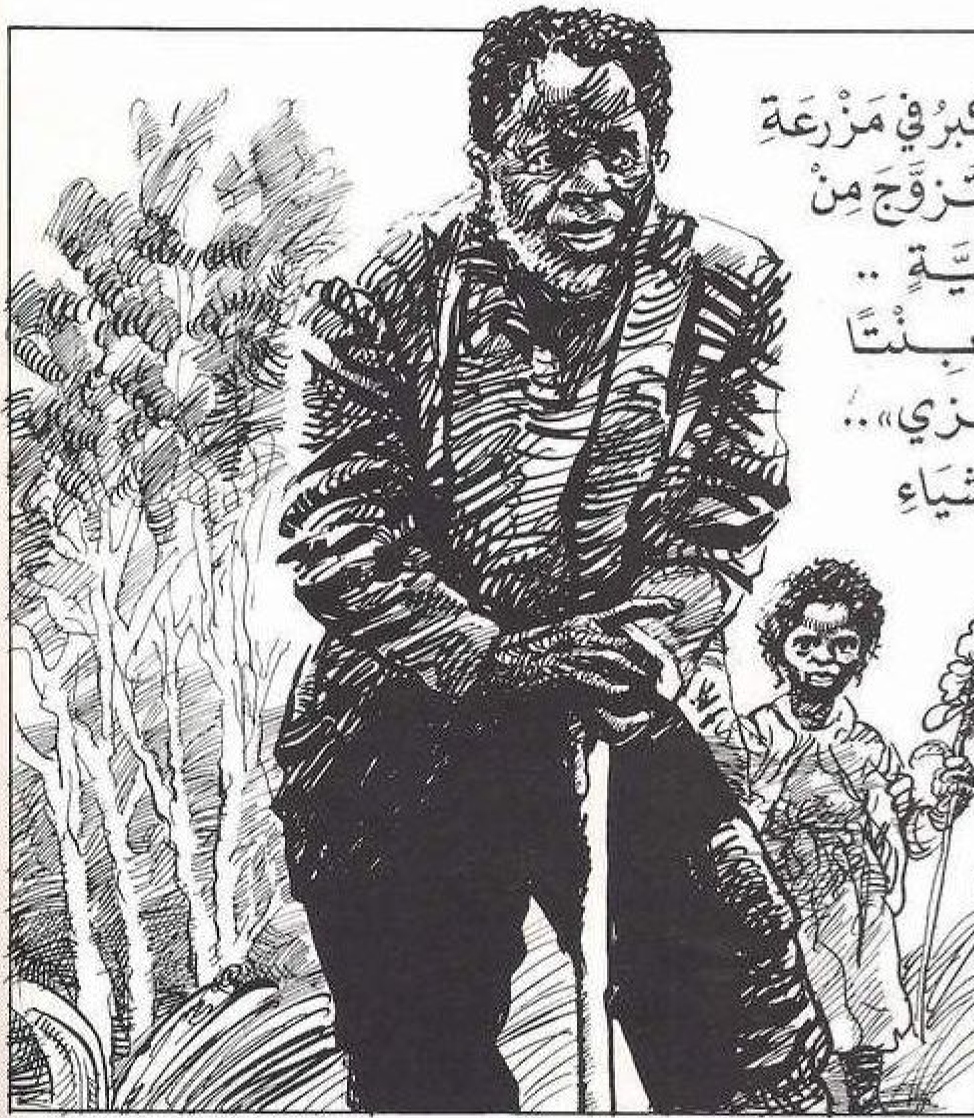


وَفي كُلِّ مَرَّةٍ كانُوا
يكتشفُونَ أمْرَهُ
فيعيدُونَهُ إلى سَيّدِه.
وَفي المَرّةِ الرّابعةِ والأخيرةِ
رَبطوهُ إلى جِذعِ شَجرةٍ.

وَتناوَلَ أحدُهم فأسًا، وَهوىٰ
بها على رِجْلِهِ، فَبَترَ نِصْفَ قدمِهِ
اليُمْنىٰ.. كي يعجزَ عنِ الجري دُونَ
أنْ يفقِدَ القُدرةَ على المَشْيِ.






اسْتقرَّ جدُّك الأكبرُ في مزرعةِ السيِّدِ الأبيضِ ، وتزوَّجَ مِنْ طاهيةٍ إفريقيَّةٍ ..
أنجبَ منها بِنْتًا أسْمياها «كِيزي» ..
وعِنْدما كبرتْ علَّمها أسْماءَ الأشياءِ بلُغتِهِ الأصْليَّةِ . وروى لها كيفَ اختطفهُ الرِّجالُ البيضُ مِنْ موْطِنِه ، وباعوهُ في سُوقِ العبيدِ .




وتزوَّجتْ «كيزي» ، ثُمَّ أنجبتْ ، وتزوَّجَ أولادُها ، وأنجبوا . وتناقلَ الجميعُ قصَّةَ جدِّهم الأكبرِ «كينتا» الَّذي كانَ يُسمِّي القيثارةَ «كو» والنَّهْرَ «كامْبي بُولونجو» ، والَّذي قالَ إنَّهُ كانَ يحتطبُ عِنْدما اختطفوهُ .
ألَنْ تكُفِّي عَنْ هذهِ الحكاياتِ القديمةِ يا أُمِّي؟


لكِنَّ الصَّبيَّ «أليكس» لمْ يملَّ سماعَ قصَّةِ جدِّهِ الأكبرِ .
وعِنْدما كبرَ واشتغلَ بالصَّحافةِ قرَّرَ أنْ يتحقَّقَ منْها .
كو .. كامْبي بُولونجو .. أيُمكِنُ أنْ تكونَ هذهِ مُفرداتِ لُغةٍ ما ؟

وَصدق حدسه، فقد أكّد له أحد المتخصّصين أنّها مفردات لغة «ماندينكا» الّتي يتكلّمها شعب «ماندينجو». وفي هذه اللغة تعني «بولونجو» المياه المتحركة.. أي النّهر. أمّا «كامبي» فيمكن أن تعني نهر «جامبيا».

وطار «أليكس» إلى غربيّ إفريقية



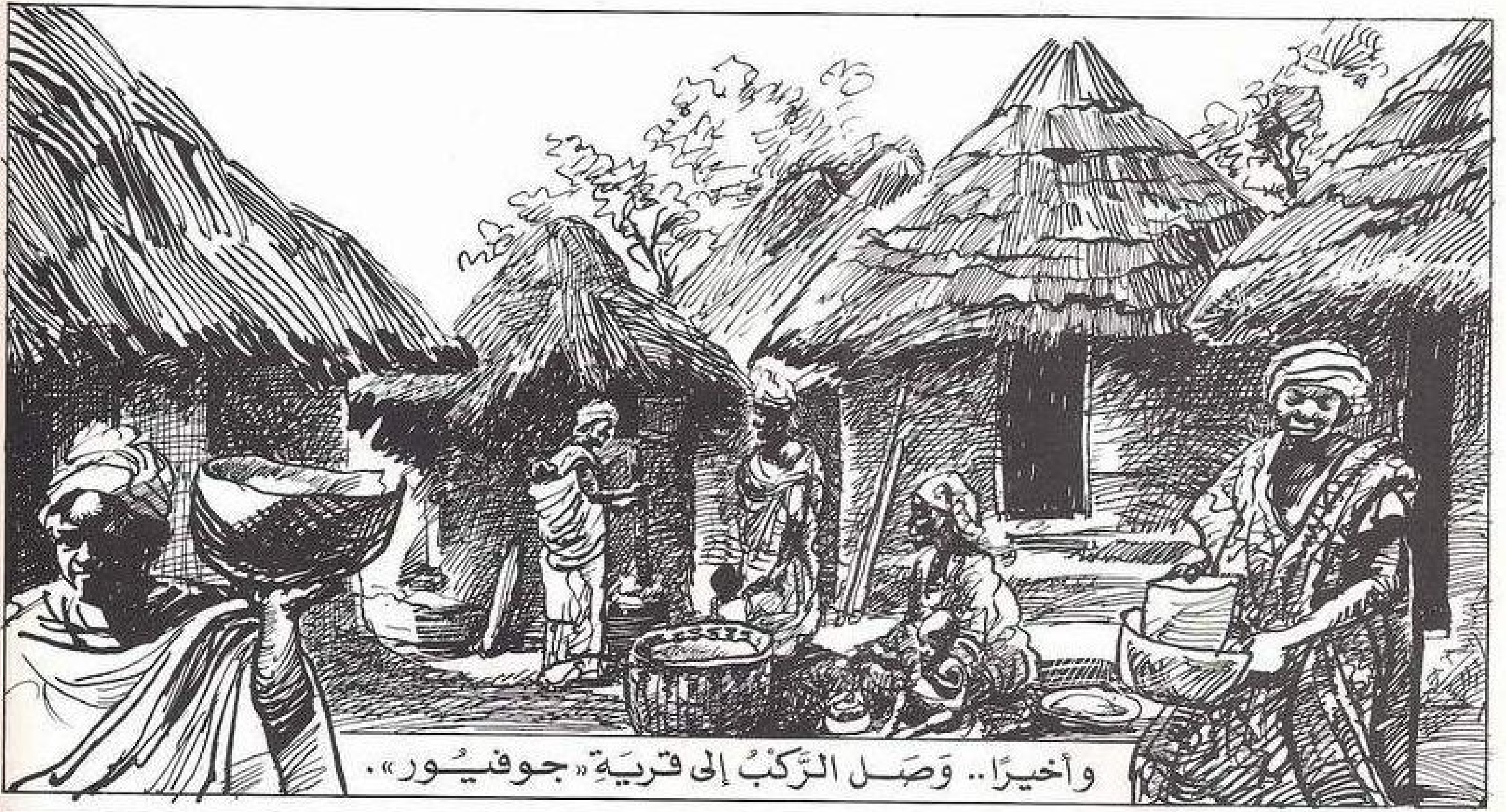
وفي عاصمة جامبيا أمام خريطة قديمة..



ولكنّ الوصول إلى القرية لم يكن بالأمر السّهل..

وكان لابدّ من استئجار قارب وشاحنة وسيّارة لاندروفر وعدد من الأدلّاء والمترجمين.





أحاطَ أهالي القريةِ بقريبِهم القادمِ مِنْ وَراءِ البحار..
وَتقدَّمَ أحدُ الرُّواةِ العجائزِ مِمَّن يحفظون تاريخَ القبائِل
وَالعائلاتِ، فروى للضَّيفِ قصَّةَ جدِّهِ الأكبر.

قالَ الرّاوي: "نشأتِ العائلةُ في «مالي» القديمة. وكانت إمبراطوريّةً إسلاميّةً ذاتَ حضارةٍ عريقةٍ. ثمّ انتقلَ فرعٌ منها إلى «موريتانيا»، ومنها نزحَ «كايرابا كونتا كينتا» - وكانَ منَ الأولياء - إلى جامبيا حيث تزوّجَ، وأنجبَ ولدًا أسماهُ «أومومورو» أي عُمَر، وأنجبَ هذا ولدًا أسماهُ «كينتا»؛ تعلّمَ الماندِيكيّةَ والعربيّةَ، وحفظَ القرآنَ.

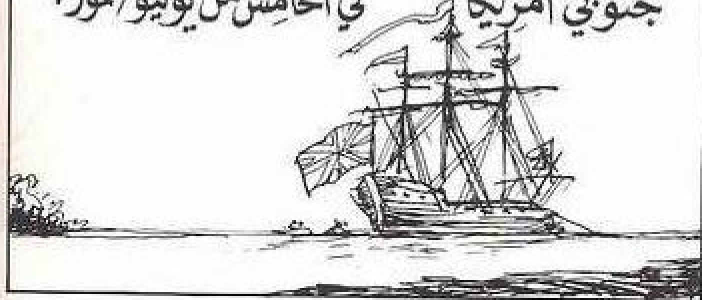
وفي الوقتِ الّذي جاءَ فيهِ جنودُ ملكِ الإنجليز



خرجَ «كينتا» ليحتطبَ.. ومنذُ ذلكَ الحينِ.. لمْ يرهُ أحدٌ!".



وَبالبحث في سجلّات سُفن العبيد تبيّن
أنّ ثلاثين سفينة خرجت في ذلك العام
من نهر جامبيا ، أبحرت إحداها وتُدعى
«لورد ليجونيير» إلى ميناء «أنا بوليس» في
جنوبيّ أمريكا في الخامس من يوليو/تموز.



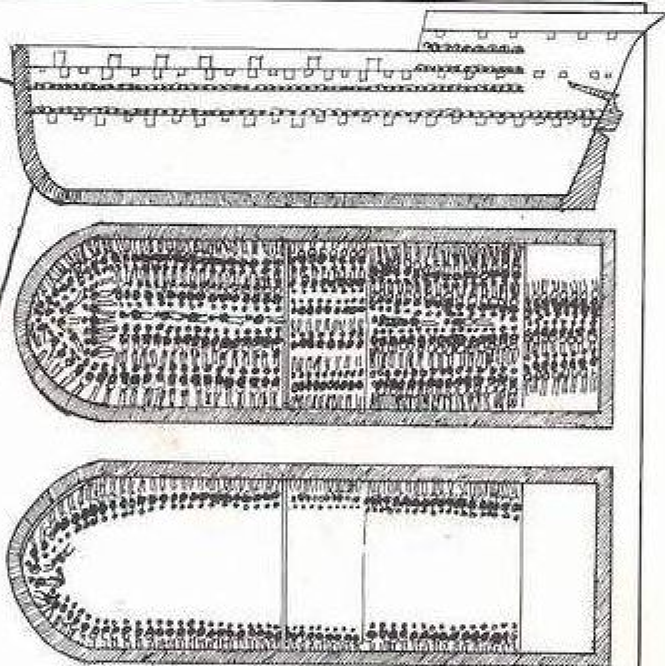
وَفي مدينة «أنا بوليس» وَاصل «أليكس»
بحثه في أرشيف الصُّحف حتّى تجمّعت
خيوط القصّة كلّها بين يديه .
وأخيرًا عكف على كتابة
تاريخ أسرته :
"في ربيع عام ١٧٥٠م . وفي
قرية «جوفيور» على مَبعدة
أربعة أيام من شاطئ جامبيا
وُلد «كينتا»".

جريدة الجازيت
أول أكتوبر ١٧٦٧

إعلان

وَرد توًّا على السفينة
«لورد ليجونيير» من نهر
جامبيا شحنة من العبيد
الأصحاء المنتقين للبيع
يوم ....

وزوجته «آن»
باعاه
أرضًا
وعبدًا
زنجيًا في
صحة جيدة يُدعى ....

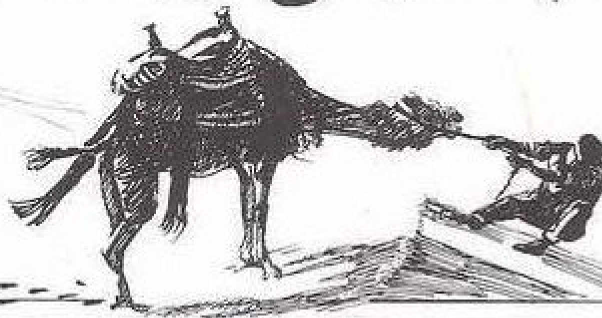


هكذا كان يتمّ شحن العبيد في السُّفن



الجاسوس والعرش





فِي الخامسِ مِنْ يُونيو/حزيران ١٩١٦م. أُعلِنَتْ فِي المدينةِ المنوَّرةِ الثَّورةُ العربيَّةُ ضِدَّ الحُكْمِ التُّركي، ونادى الثوَّارُ بالشريفِ حسين - أميرِ مكَّة - ملكًا على العرب.





كانتْ تركيا حينذاكَ تخوضُ الحربَ العالميَّةَ الأولى فِي الحلفِ المناوئِ لإنجلترا وفرنسا. ووَجدَ الإنجليزُ فِي الثورةِ فرصةً لإضعافِ عدوِّهم «ألمانيا» والاستيلاءِ على المنطقةِ العربيةِ، فقدَّموا المساعداتِ للشريفِ حسين، وتعهَّدوا له باستقلالِ العربِ فِي دولةٍ موحَّدةٍ، وعاونوهُ على تنظيمِ جيشٍ تولَّى قيادتَهُ ابنُهُ الأكبرُ فيصل يعاونُهُ ضابطٌ إنجليزيٌّ يتكلَّمُ العربيَّةَ هو الكابتن «لورنس» جاسوسُ الصحراءِ الشهير.



شنَّ «الفيلقُ العربيّ» حربَ عِصاباتٍ ناجحةً ضِدَّ الأتراك، ولمْ يمضِ عامانِ حتّى طردهُم مِنَ الجُزءِ الأكبرِ من الجزيرةِ، وأصبحَ الجوُّ مُمهّدًا لخطوةٍ حاسمةٍ.



القوّاتُ الإنجليزيّةُ ستغزُو سُوريَا ولابدّ أنْ نشتركَ معهَا .. بلْ يَجِبُ أنْ ندخلَ دِمشقَ قبْلهَا.

لا أرَى وجْهَ ضرورةٍ لِذلكَ ..

إلّا إذا كانَ لديْكَ هدفٌ آخرُ!

طبْعًا لديْهِ!

إذا سبقْنا الجيشَ الإنجليزيَّ ضاعتْ فرصتُكَ في أنْ تُصْبِحَ ملِكًا على سُوريّا.

إمبراطوريّةٌ عربيّةٌ مُوحّدةٌ في ظلِّ التّاجِ البريطانيّ يحكمُها فيصلُ .. وأنا إلى جِوارِهِ الحاكمُ الحقيقيّ.

وَفي مقرِّ الشَّريفِ حُسين بِمكَّة ...

بلغنا أنّ الإنجليز اتّفقُوا مَعَ الفرنسيّين على اقتِسامِ المنطقةِ العربيّةِ.

ستأخُذُ فرنسا الموصِل وَجُزءاً من سُوريّا.. وتحتفِظُ بريطانيا بالباقِي.

تخلّوا إذنْ عن عُهُودِهِم.. وهذا ابني الغرّ يمْشِي في رِكابِهِم طَمَعاً في عرْش سُوريّا!

وَقبل أسابيع مِنْ موْعِدِ الزّحفِ على دِمشق...

"لقد أمرتُ بعزل فيصل عن قيادة الجيش"

الشريف حسين
ملك العرب

يبْدُو أنّ الأقْدار تُحارِبُني!


وَفي الأيّامِ التّالِيَةِ بَدا «لورنس» مُشرِفاً على الجُنُونِ !!
هل أدفعُه إلى التمردِ على والدِه .. أو نختفي معاً عنِ المسرح ؟


وَلَمْ يَجِدْ «لورنس» مَفَرّاً مِنَ الاستِنجادِ بالجنرال «أللنبي» في القاهرة
لابُدّ أن نَضْغَطَ على الشريفِ حسين ليتراجعَ عن عزلِ فيصل


وَكانَ الضَغطُ سَريعاً وَفعّالاً !
إنَّهُمْ يُهَدِّدُونَ بِوَقْفِ المعُوناتِ الماليّةِ !


وَسرعانَ ما ظَهرَ خطرٌ جديدٌ ..
الاتفاقُ مَعَ الأتراكِ ليسَ في مصلحتِكَ ... فلنْ يَسمَحوا لكَ بأن تصبحَ مَلِكاً .. فرصتُكَ الوحيدةُ هي دخولُ دِمَشقَ مَعَ الإنجليز.


بأيِّ صِفَةٍ وأنا معزُول ؟

وفجأة نجحت ضغوط الإنجليز، وأبرق الشريف حسين إلى فيصل يعيده إلى قيادة «الفيلق العربي»..

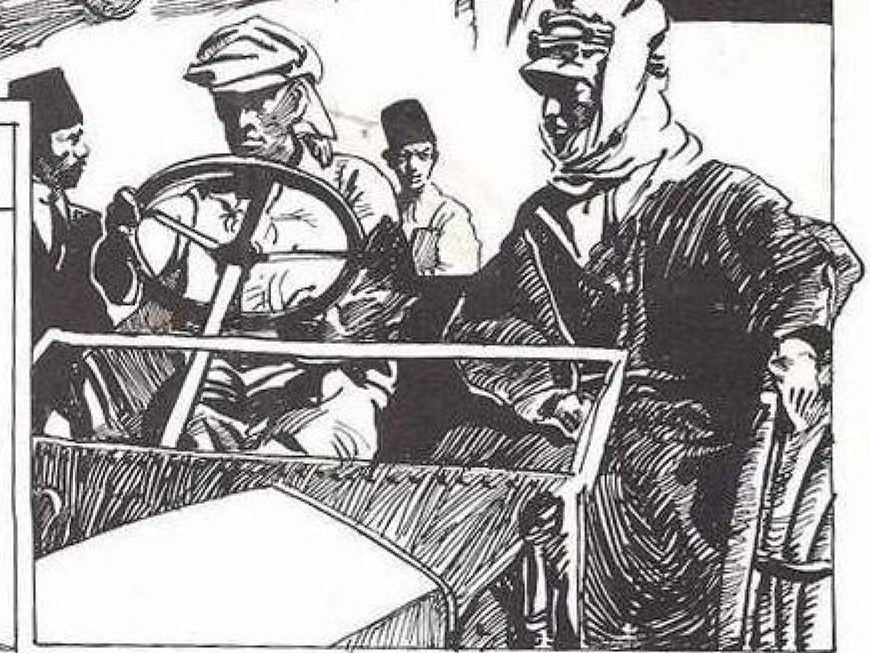
البرقية أنقذت شرفي
وشرفك أنت أيضًا..

يا سلام!

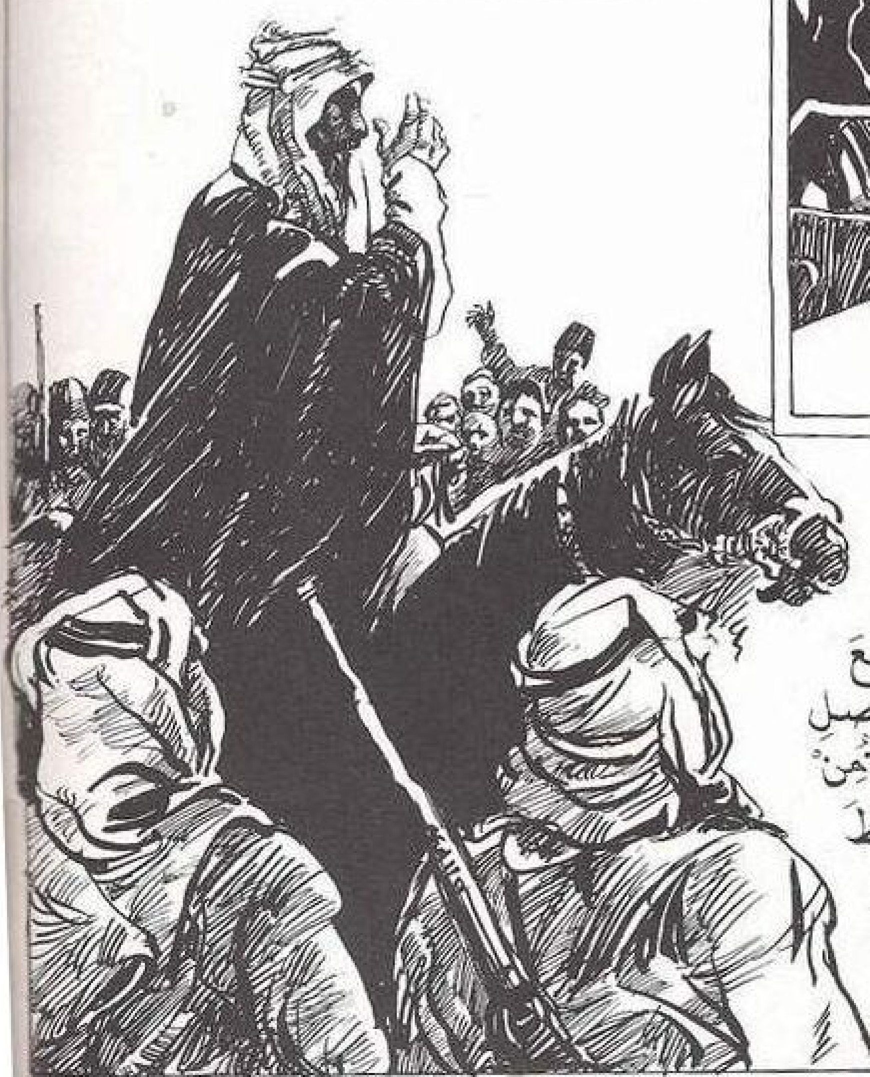
الشرف!! لقد فقدته
عندما أكدت للعرب أن
إنجلترا ستحافظ على كلمتها.



وفي أول أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٨ دخلت القوات العربية دمشق

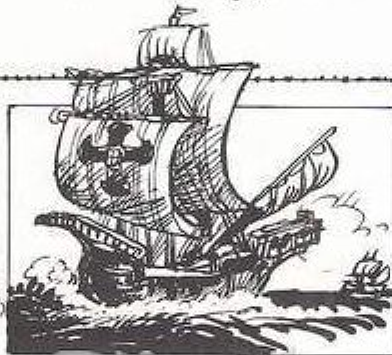


وخرج الشعب يرحب بفيصل ولورنس..



أصبح فيصل ملكا متوجا على سوريا ،
لكن العرش الجديد لم يصمد طويلا لرياح الاستعمار
فما لبثت إنجلترا أن عقدت صفقة جديدة مع
فرنسا تنازلت لها فيها عن كل سوريا مقابل الموصل
الغنية بالبترول ، وطلبت السلطات الفرنسية من
فيصل الرحيل ، فنشبت معركة «ميسلون» وسقط
قائد الجيش «يوسف العظمة» شهيدا ، ثم
غادر فيصل دمشق برغم تمسك الشعب به .
وضاع حلم «لورنس» في العرش إلى الأبد ...

إِدفنوا قلبي في النّهرِ الضّائع





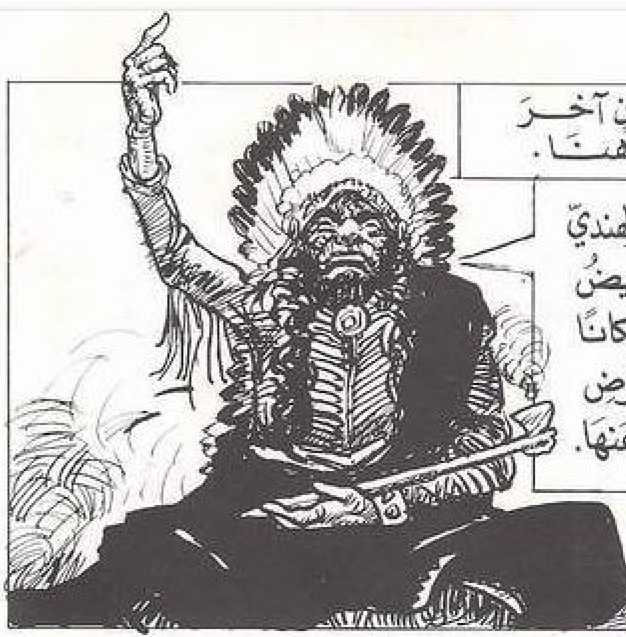
كانَ اكتشافُ «كريستوفر كولومبس» للقارّةِ الأمريكيّةِ سنة ١٤٩٢م بدايةَ صفحةٍ دمويّةٍ في تاريخِ واحدٍ مِن أعرقِ الشّعوبِ ، هو الّذي عُرِفَ باسمِ «الهنودِ الحُمر».. فقدْ توافدَ ملايينُ الأوربّيّين على العالمِ الجديدِ سَعياً وَراءَ أراضيهِ الخصبةِ المتراميةِ ، واستولَوْا عليها مِن أصحابِها الهنودِ ، بالخداعِ حيناً ، وبالقوّةِ الغاشمةِ حيناً آخرَ . ثمَّ شكّلُوا مِنَ الأراضي المغتصبةِ الدّولةَ الّتي حملتِ اسمَ الولاياتِ المتّحدةِ .



وكانَ «النّسرُ الكبيرُ» زعيماً لقبيلةٍ هنديّةٍ صَغيرةٍ انتزعَ الجيشُ الأمريكيّ سنة ١٨٥٠ أجزاءً كبيرةً مِن أراضيها الواقعةِ على شاطئِ «النّهرِ الضّائعِ» مُقابلَ وعدٍ بألّا يتعرّضَ لها أحدٌ مَدى الحياةِ . لكنْ لمْ تَمضِ سَنواتٌ قليلةٌ حتى ظهرَ الجُنودُ الأمريكيّونَ مِن جديدٍ .







الأبُ الأعظمُ يَعرِضُ عليكمُ الانتقالَ إلى مكانٍ آخر لأنَّ أبناءَ البيضِ يريدُونَ البحثَ عنِ الذهبِ هنا.
الرُّوحُ الأعظمُ خلقَ الرَّجلَ الأبيضَ والرجلَ الهنديّ وقدْ خلقني في هذهِ الأرض. أمّا الرجُلُ الأبيضُ فأرضُهُ هناكَ. وعندما عبرَ البحرَ أعطيتُهُ مكاناً والآنَ لمْ يبقَ لي سوى قطعةٍ صغيرةٍ منَ الأرضِ وقدْ أوصاني الرُّوحُ الأعظمُ بألاّ أتخلّى عنها.


وتزعّمَ «الثورُ المرقّط» الدعوةَ إلى القتالِ...
لماذا لمْ تأمرْ بإطلاقِ النّارِ عليهمْ؟ إنّهمْ لا يزيدُونَ على مئةٍ منَ الفرسانِ، ولدينا مئتانِ منَ المحاربينَ...
يُمكنُنا أنْ نقضيَ عليهمْ.. لكنَّ المئاتِ غيرَهمْ لا تلبثُ أنْ تأتيَ..



أصبحتَ ممتلئاً بالخوفِ منَ الرَّجُلِ الأبيضِ. وصارَ لكَ قلبُ طائرٍ..
أنتَ الّذي تحمِلُ رأسَ طائرٍ.. لنْ أحاربَ قبلَ أنْ نستعدَّ جيّداً

ولم ينتظر «البيض» حتى يتمكن الهنود المسالمون من الاستعداد، فبادروهم بهجوم ليلي كاسح استهدف القضاء عليهم وإبادتهم.



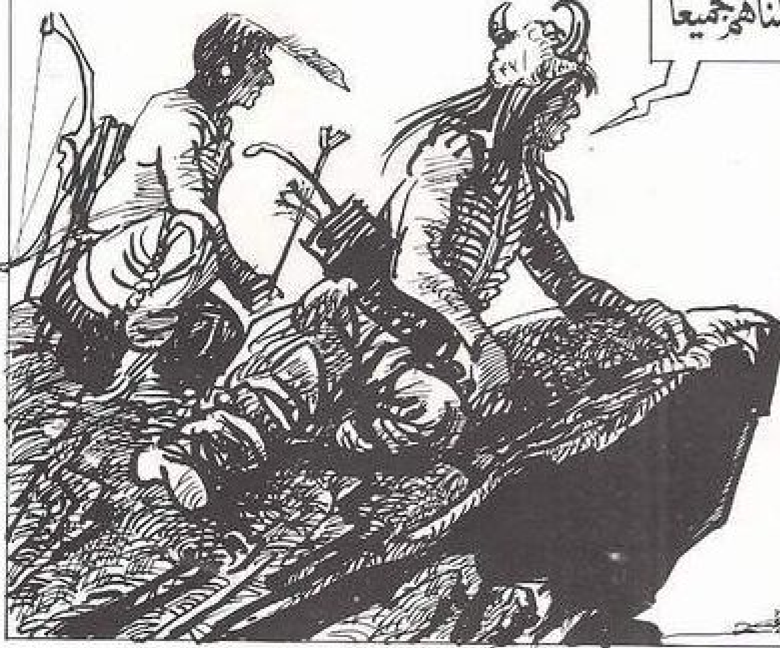






وسرعان ما لحق بهم «الثور المرقط».

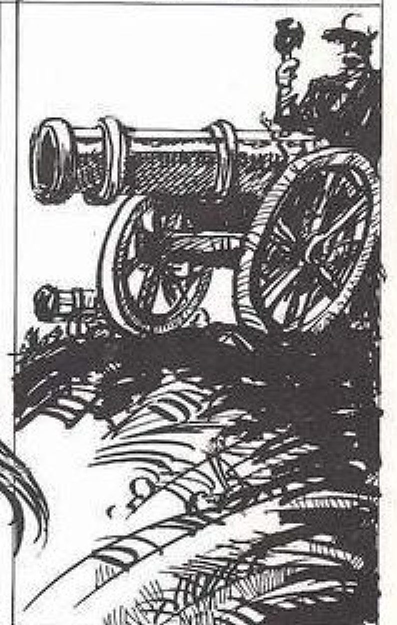
توقفنا عند مزرعة «إخوان جيمس» وقتلناهم جميعًا



لماذا فعلتم ذلك؟ إنهم أصدقائي. وسأتحمل الآن مسئولية فعلتكم.



ولم يمض شهران حتى تحققت نبوءة «النسر الكبير»



بشرط أن تسلم إلينا «الثور المرقط» وجماعته



إذا رفضتم عودتنا إلى أرضنا، فدعونا نقيم هنا.. لا أحد يحتاج إلى هذه الصخور



وفي خيمة «النسر الكبير»

أرى أن نسلم أنفسنا، أنا و«الثور المرقط» وزميليه، لننقذ قومنا.



ها أنت تكشف عن قلب السمكة في جسدك



سأقتل من يفكر في الاستسلام.



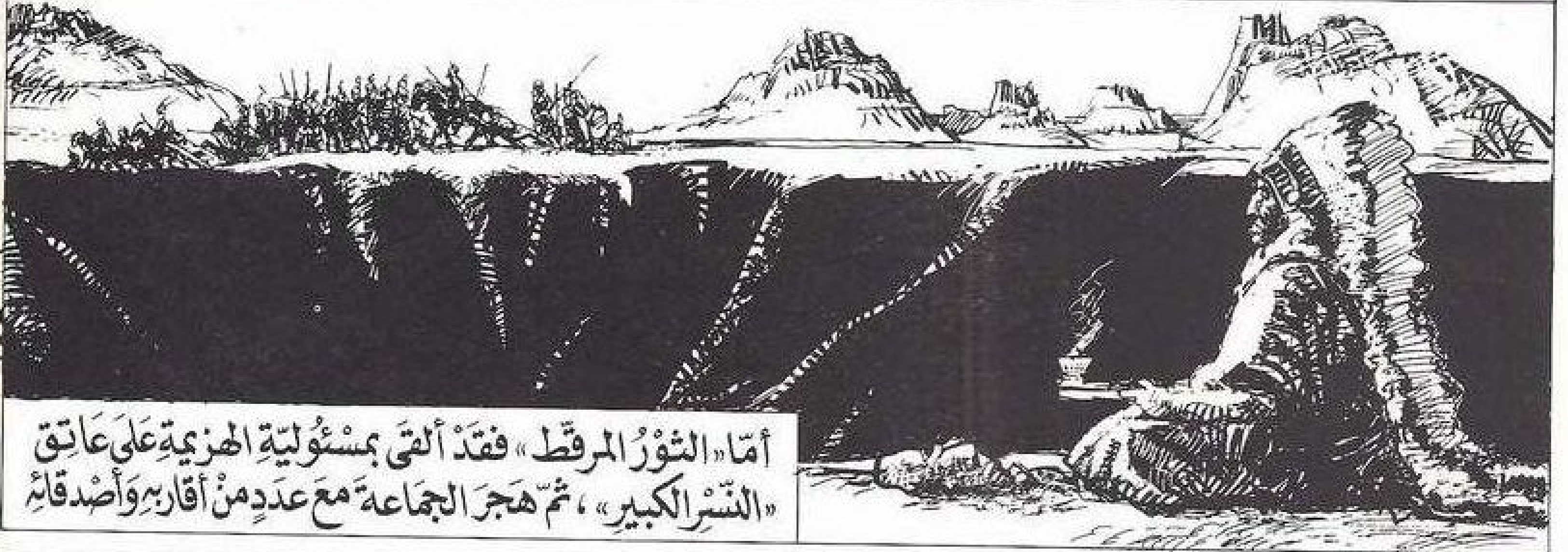






ليسَ أمامكمْ غيرُ القبولِ بشروطِنا.. أو الحربُ!

أشعلَ مقتلُ الجنرالِ معركةً ضاريةً رجحتْ فيها كفةُ «البيضِ». وأصدرَ «النسرُ الكبيرُ» أوامرَه بالانسحابِ، وقادَ ما تبقَّى من رجالِهِ إلى شعابِ الجبالِ.



لكنّهُ لم يذهبْ بعيدًا.. فقد سقطَ في كمينٍ نصبهُ «البيضُ»




وبسهولةٍ عثرَ «الثورُ المرقّط» على مخبأِ «النسرِ الكبيرِ»



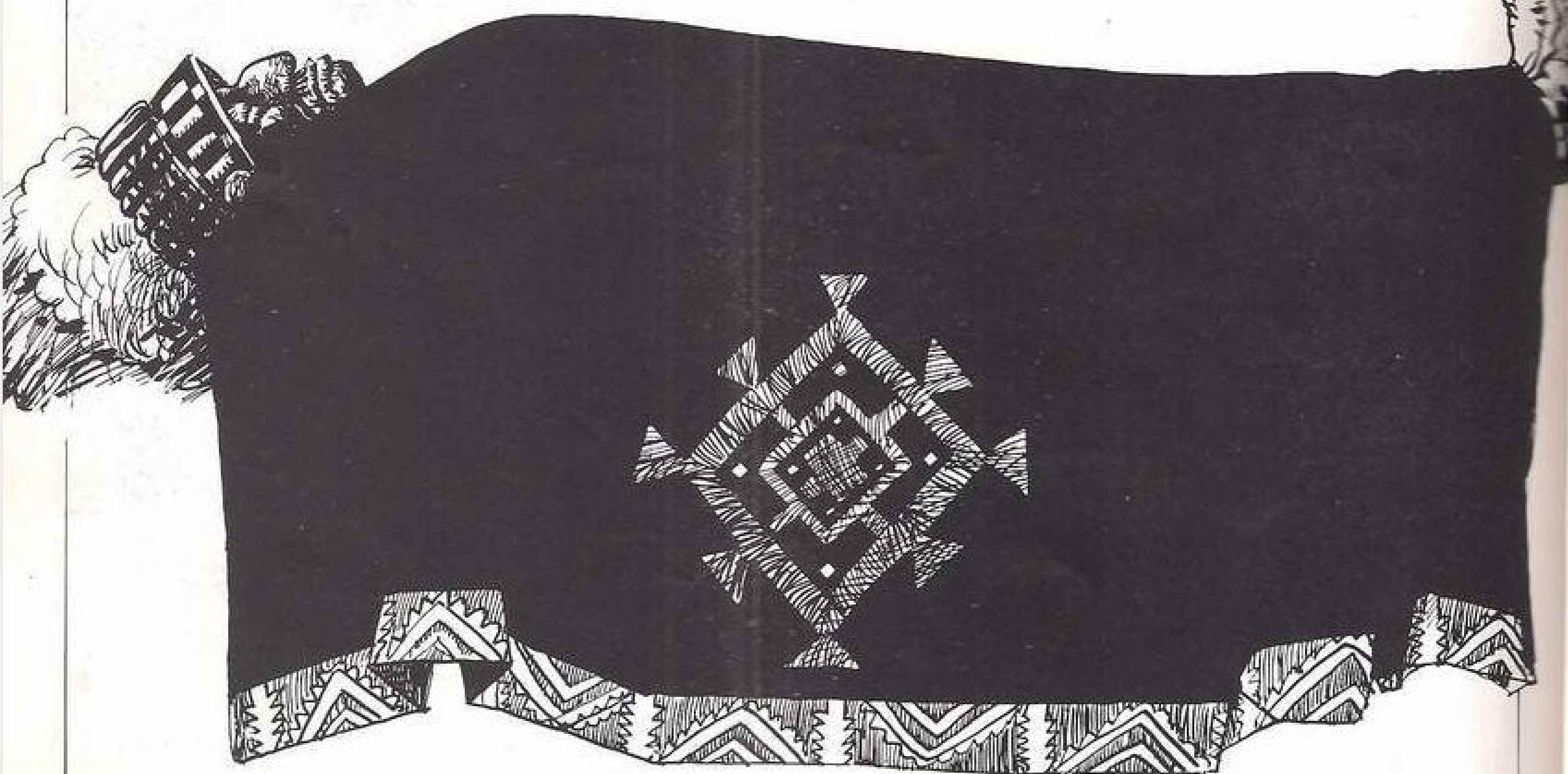

صَمَدَ «النّسرُ الكبيرُ» طويلاً مَعَ مَنْ بَقِيَ حَيّاً مِنْ رِجَالِهِ، لكنَّ الأمريكيّينَ تَمكّنُوا مِنْ مُحَاصَرَتِهِمْ، وَمَنَعُوا عَنْهُمُ المَاءَ وَالطّعَامَ..







إلاّ أنّ مأساةَ «النّسرِ الكبيرِ» لمْ تنتهِ بشنقِهِ. فبعْدَ ساعاتٍ مِنْ دفنِهِ قامَ مجهُولونَ باستِخراجِ جُثّتِهِ وَتحْنيطِها، ثمّ نقلُوها إلى مَدينةِ «الملاهي» حيثُ عُرِضَتْ للفُرجةِ مقابلَ عشْرَةِ سِنتاتٍ للفَرْدِ الوَاحِدِ!!





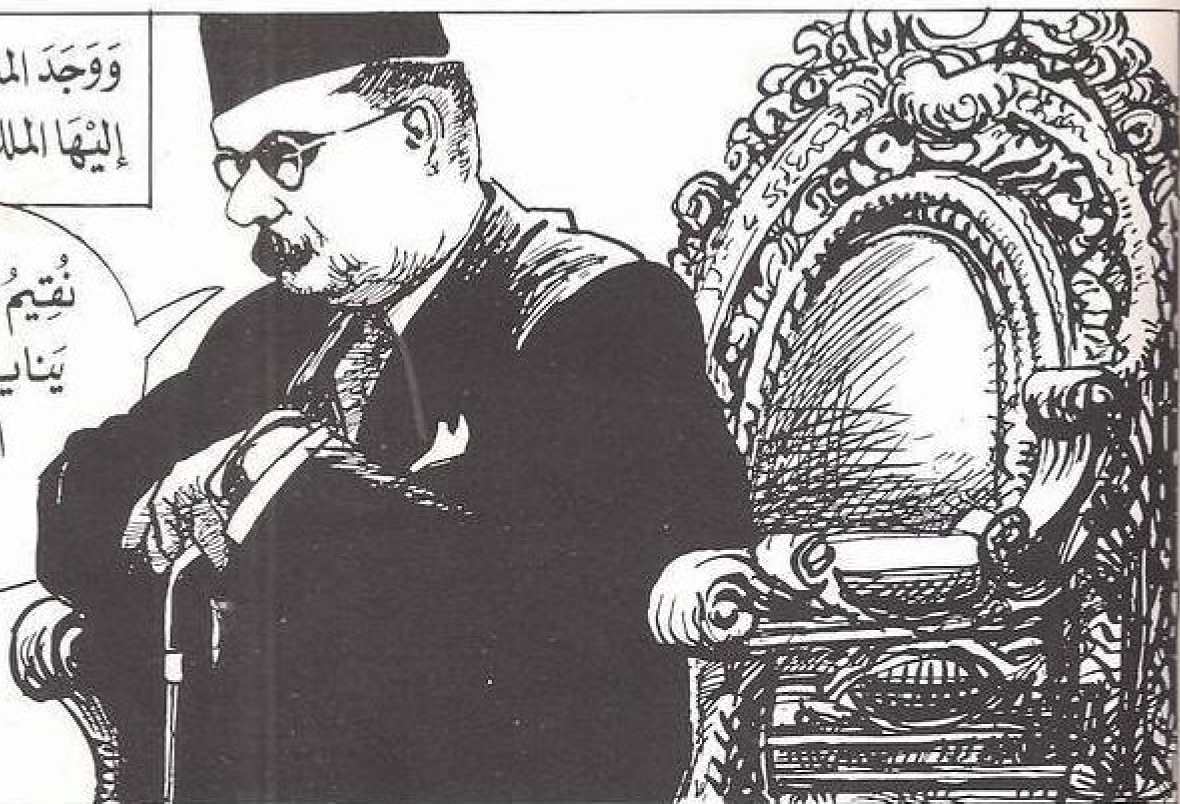


بَدَتْ مِصْرُ في عامِ ١٩٥١م. مُقبلَةً على نقطةِ تحوُّلٍ حاسِمةٍ في تاريخِها. فقدِ استجابَ «مصطفى النحّاس باشا» -رئيسُ الحُكومَةِ- لِلضَّغْطِ الشعْبيِّ، وَأعْلنَ إلغاءَ المعاهَدةِ الّتي رَبطتْ مِصْرَ ببريطانيا، وَأعْطتِ الشرعيّةَ لِلاحتلالِ البريطانيِّ في مَنطِقَةِ قناةِ السّويس.



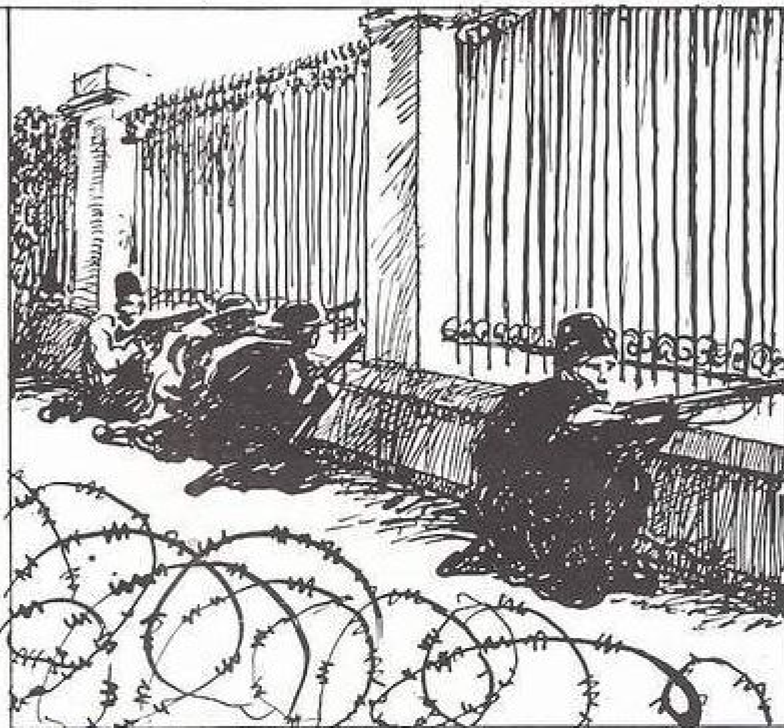
وَانزعجَ الملكُ «فاروق» عِنْدَما وَجدَ أنَّ الحُكومةَ ضَعيفةٌ أمامَ المدِّ الشّعبيِّ. وكانَ ثمّةَ انزعاجٌ مُماثِلٌ في لندن وَفي وَاشِنْطون الّتي كانَتْ تخطِّطُ لِلسّيطرَةِ على الشّرقِ الأوسطِ. وَالتقى الجميعُ على ضَرُورةِ التّخلُّصِ مِنَ الحُكُومَةِ وَقمعِ الشّعْبِ.





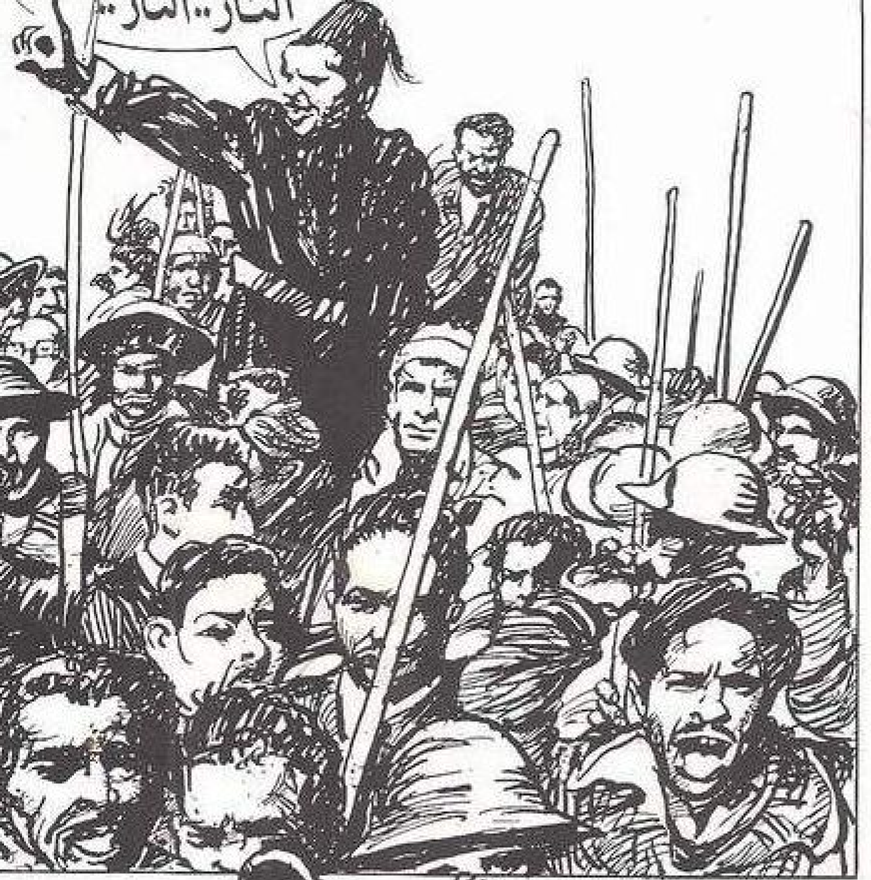




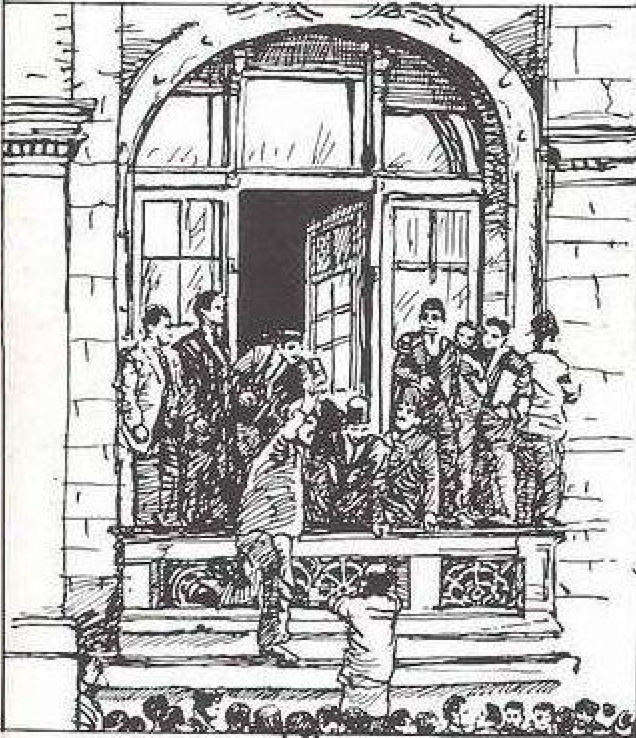


وَفي صَباح يَوْم ٢٥ مِن يَنايِر/كانُون الثّاني ١٩٥٢م. حَاصَرَ الإنجليزُ مبنى محافظةِ الإسماعيليّةِ كُبْرَى مُدنِ القناةِ. وَأطلَقُوا نيرَانَ دبّاباتِهم على جُنُودِ البُوليسِ المِصريّ المسلّحِين بالبَنادِقِ العتيقَةِ.

ماحدث بعد ذلك كان أقرب إلى المذبحة..
ولم تكد تشرق شمس اليوم التالي حتى تتابعت ردود
الفعل، فتمرد جنود البوليس في القاهرة لأول مرة
في تاريخ البلاد، وخرجوا في مظاهرات صاخبة
انضمت إليها الجماهير.

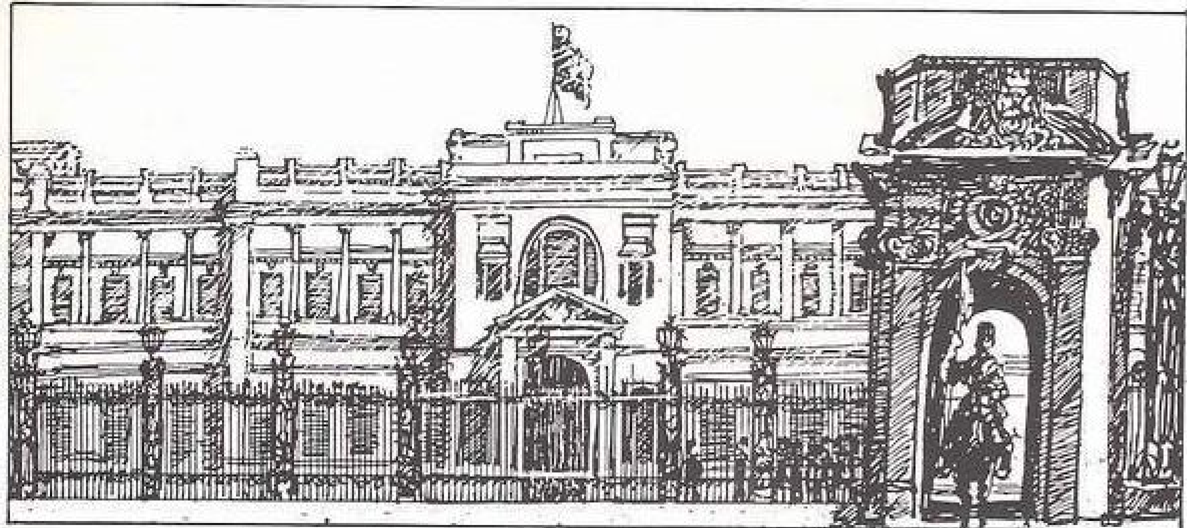


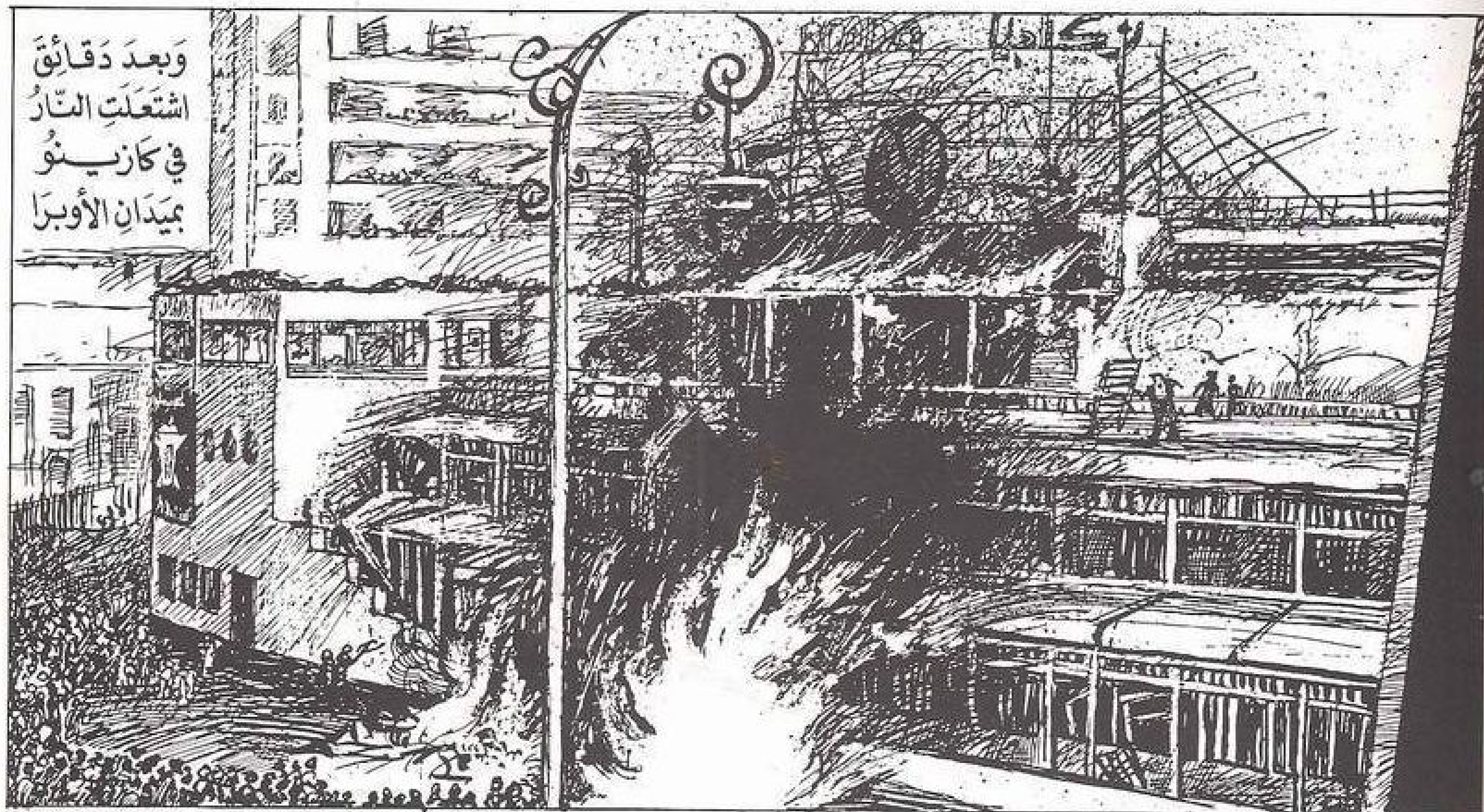
وتوجه الجميع إلى مبنى مجلس الوزراء



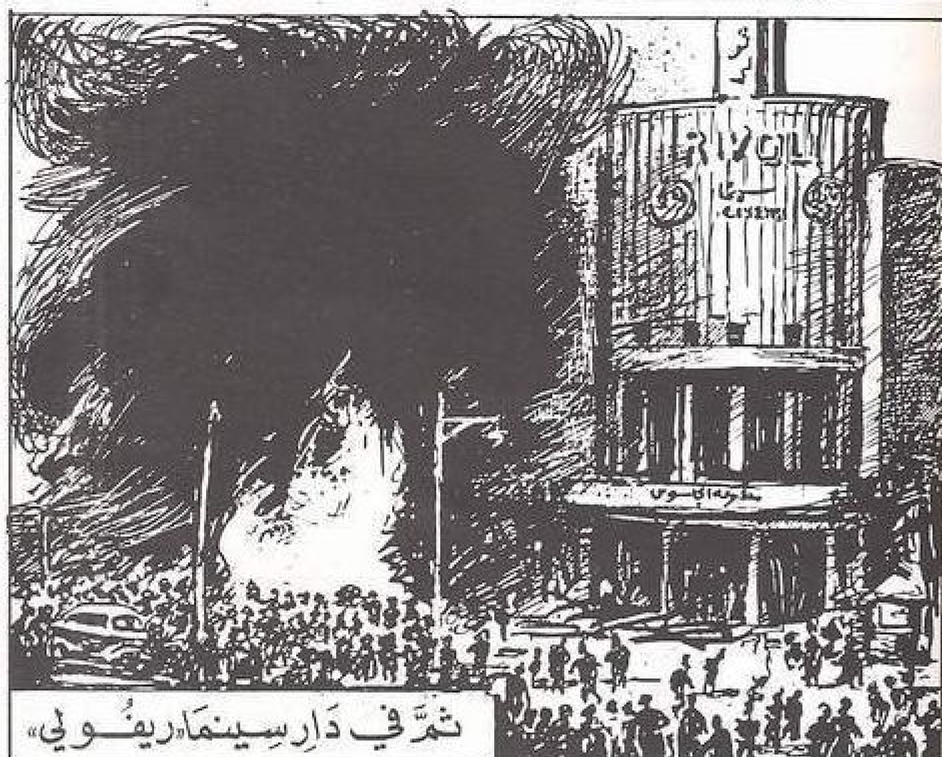


وَخِلَالَ ذَلِكَ كَانَ ضُبَّاطُ
الجَيْشِ وَالبُولِيسِ يَتَجَمَّعُونَ
فِي فِنَاءِ القَصْرِ المَلَكِيِّ
لِحُضُورِ المَأْدُبَةِ المَلَكِيَّةِ ،
وَاكْتَمَلَ عَدَدُهُمْ فِي
السَّاعَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ .









وانتشرت مجموعات صغيرة من أشخاص
يحملون قضبانا حديدية وكرات من
القماش وزعت عليهم صفائح البنزين.
وتحول وسط المدينة إلى
كتلة من اللهب .



رأى «فؤاد سراج الدين» وزير الداخلية ضرورة الاستعانة بالجيش للسيطرة على الحريق لكنه عجز عن الاتصال بالقصر فتوجه إليه بنفسه في الساعة الثانية والنصف..







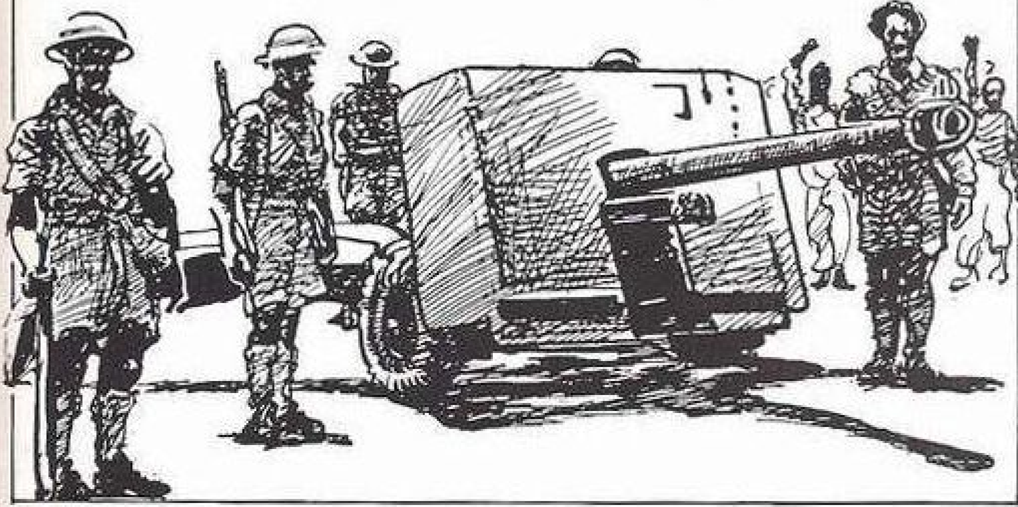






أعْلنَتِ الحُكومَةُ الأحكامَ العرفيَّةَ وألْقتِ القبضَ على ثلاثمئةٍ مِنَ العَناصِرِ الوطنيَّةِ، لكنَّ ذلكَ لمْ يُنقِذْها.. فقَدِ انتهزَ المَلِكُ الفُرصَةَ وعزلَها، ثُمَّ شكَّلَ حُكومَةً جديدةً ألصَقَتْ تُهْمَةَ الحَريقِ بالعَناصِرِ الوطنيَّةِ.

لمْ ينجحِ المَلِكُ في إنقاذِ عَرْشِهِ المُهتزِّ، فلَمْ تكتمِلْ ستَّةُ شهورٍ على الحَريقِ حتّى قامَ الضُّبّاطُ الأحْرارُ في الجَيشِ - يَقودُهم جمال عبدُ النّاصِر - بثَوْرتِهم التّاريخيَّةِ.



وفي ٢٦ مِن يوليو/تموز ١٩٥٢ غادرَ المَلِكُ البِلادَ مَطْرودًا، وقامَ الثُّوّارُ بتصْفِيَةِ النِّظامِ الإقطاعِيِّ، وقادُوا سِلْسلةً مِنَ المعارِكِ الجادَّةِ مَعَ الاستِعمارِ، انتهتْ بتصْفِيَةِ الوُجودِ الأجْنبِيِّ في البِلادِ.. إلى حِينٍ!

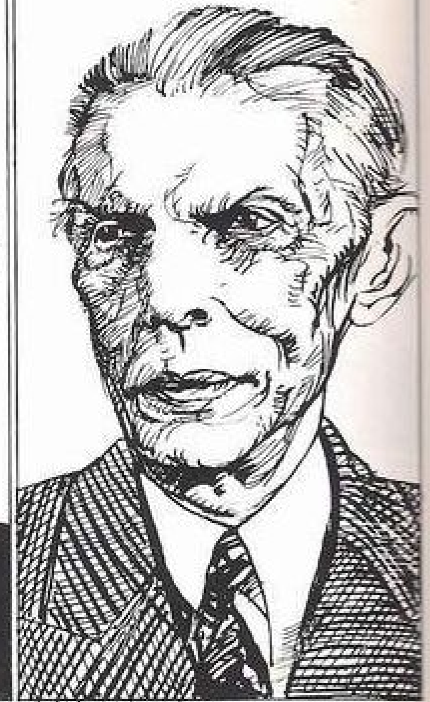


إنهم يصنعون الملح!

في سنةِ ١٩٣٠م. وصلَ الكفاحُ منْ أجلِ استقلالِ الهندِ عنِ الإمبراطوريّةِ البريطانيّةِ إلى مُنعطفٍ خطيرٍ. كان «غاندي» الّذي لعبَ دورًا بارزًا في قيادةِ هذا الكفاحِ قدْ خرجَ لتوّهِ منَ السّجنِ بعدَ ستِّ سنواتٍ بينَ جدرانِهِ، واستأنفَ حياتَهُ البسيطةَ الّتي ألّفتْ قلوبَ الشّعبِ منْ حولِهِ. وفي صومعةِ الزّعيمِ الكبيرِ اجتمعَ قادةُ الحركةِ الوطنيّةِ.

وكانَ «جناح» و «نهرو» في مُقدّمةِ الحاضرينَ.







وانحنى «غاندي» على المغزلِ الذي دعا الهنودَ إلى استخدامِهِ كي يتمكّنوا مِن الاستغناءِ عَن الأقمشَةِ الإنجليزيّة.

وردّد: "الجماهيرُ قادرةٌ على صُنعِ المُستحِيل.. المهمُّ أن نؤمنَ بها، ونعرفَ ماذا نطلبُ مِنها" وكانَ الزعيمُ الكبيرُ يعرفُ مايجبُ عملَه.

وبعد أسبوع في مكتب الحاكم الإنجليزي

مِلح ؟!

أجلْ يا سيّدي .. سَيقومُ بمَسيرة ٢٤٠ ميلاً إلى البحرِ ثمّ يصْنعُ المِلحَ ..

لكِنّنا نحتكرُ صناعةَ المِلحِ في الهند.. القانونُ يمنعُ صُنعَهُ أو بيعَهُ دونَ ترخيصٍ مِنّا.

تماماً يا سيّدي .. وهذهِ هيَ أهميّةُ ما سيفعلُهُ «غـانـدي».

سَنتجاهلُ الأمرَ كلَّهُ .. وَسيجدُ «مِسترغاندي» أنَّ إسْقاطَ الإمبراطوريّةِ البريطانيةِ يَحتاجُ إلى أكثرَ منْ حفنةِ مِلح !

وَفي اليومِ المحدّدِ للمَسيرة

يجبُ أن تركَبَ .. تذكّرْ أنكَ في السّتينَ مِن عُمرِكَ.

كيفَ أطلبُ مِنَ الناسِ شيئاً لا أستطيعُ أن أقومَ به !!

وانطلقَ آلافُ الهنودِ خلفَ قائدِهم في تحدٍّ سافرٍ للسّلطةِ الاستعماريّةِ ...



وَعلى الشاطِئ ..



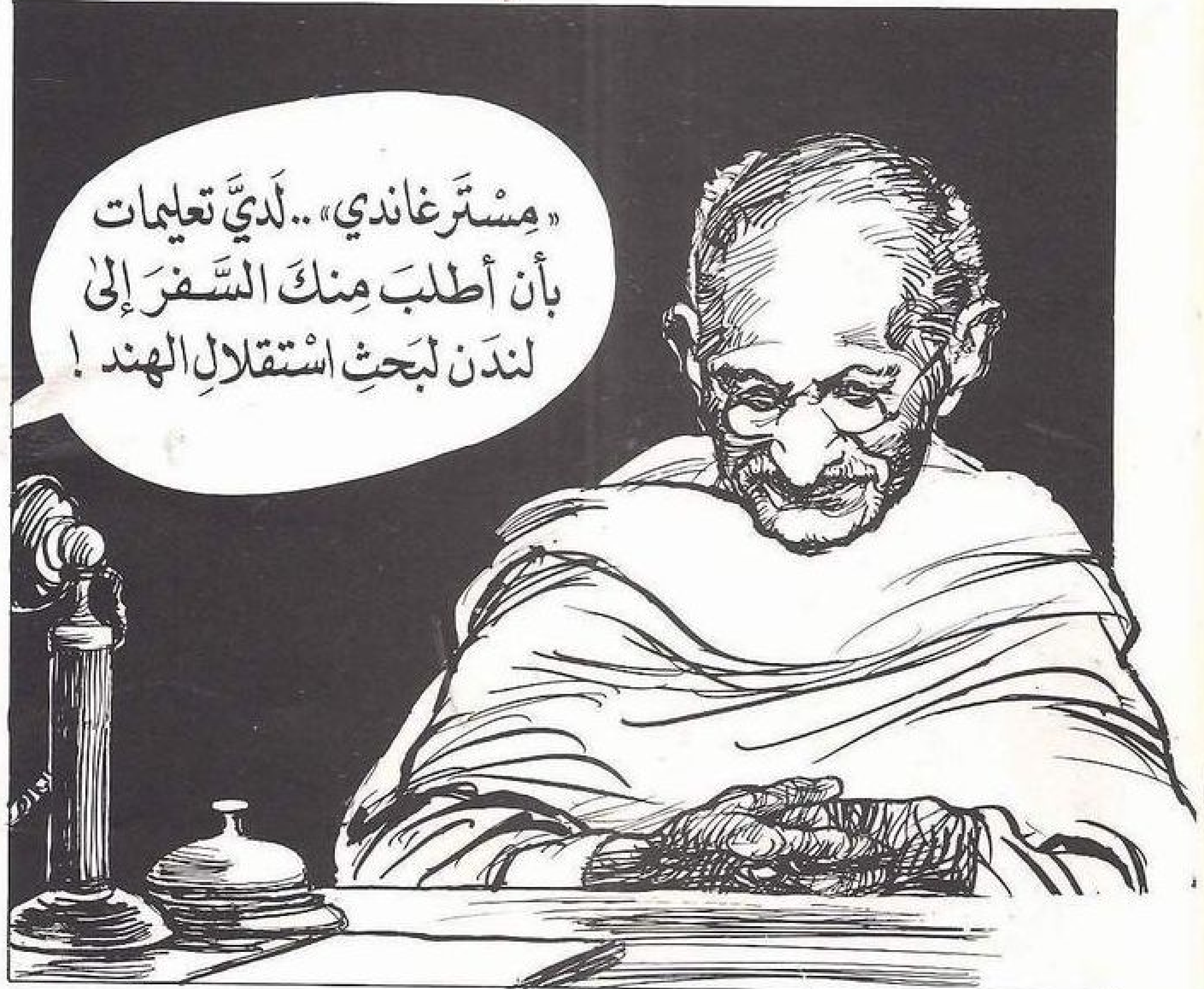
هذا المِلحُ يأتي مِنَ المُحيطِ الهندِيّ .. إنّهُ حقٌّ كلِّ هنديّ .. فليتمسّكْ كُلُّ هندِيّ بحقّهِ !



وَأقبلَ أفرادُ الشعبِ على صناعةِ
الملحِ في كُلِّ مكانٍ . وَقامَ
الزعماءُ ببَيْعِهِ في الشوارِعِ
وأصبحتِ السّلطةُ الإنجليزيّة
موضِعَ السّخريةِ .
وَفقدَ الإنجليزُ صوابَهُمْ
فلجأوا إلى القوّة ، وملأوا
السّجُونَ بآلافِ المعتقلينَ
وعلى رأسِهِم «نهرُو» وأمُّهُ
ثمّ «غاندِي» نفسُهُ ..
لكنَّ الشعبَ لم يتوقفْ
عَن صُنعِ المِلحِ !

واضطرّتِ الإمبراطوريّةُ البريطانيّةُ إلى التّراجُعِ ..
واقتيدَ «غاندي» مِن سِجْنِهِ إلى مَكتبِ الحاكِمِ الإنجليزي.





وبالطَّبع، فإنَّ مباحثاتِ لندن لمْ تكن خاتمةَ المطافِ، وإنّما بدايةَ مَرحلةٍ جديدةٍ شاقّةٍ مِن الكِفاحِ حتّىٰ تحقّقَ الاسْتقلالُ سَنةَ ١٩٤٧.
وأثبتَت حُفْنَةُ مِلحٍ، ترفعُها قبضَةُ الشعبِ أنّها قادرةٌ علىٰ المشاركةِ في إلحاقِ الهزيمةِ بإمبراطوريّةٍ لمْ تكنْ تغيبُ عنها الشمسُ لحظةً واحدةً !

صَيّادو المُدرّعات!



في اليوم السّادس من يونيو/ حزيران ١٩٨٢، لم يذهب «برهانٌ» و«صالحٌ» وأقرانهما من تلاميذ المخيّم الفلسطيني إلى المدرسةِ، ككلّ صباح. فقدِ انتشروا فوق التّلالِ القريبةِ، وقبعوا أسفل أشجارِ التّين، وعيونهم على الأفق البعيد. ولم يبارحوا أماكنهم قبل عصر اليومِ التّالي، عندما لمحوا الدبّابة الأولى.

ففي فجرِ اليوم السّابق، عبرتِ القوّاتُ الإسرائيلية حدودَ لبنانَ الجنوبيّة. وبفضلِ تفوّقِها في العُدّة والعتادِ، أمكنها أن تتغلّب على المقاومةِ الضّاريةِ التي واجهتها على يدِ المُقاومةِ الفلسطينيةِ، وسرعان ما أشرفَ الغزاةُ على المُخيّم الذي يَعيشُ بهِ «برهانٌ» ورفاقُه، وعدّةُ آلافٍ مِنَ الفلسطينيّينَ المطرودين مِنْ وطنِهم.

لابدّ مِن احتلالِ المُخيّم
وتطهيرِهِ مِنَ المُسلّحين
قبلَ حلولِ الظّلام!

فَرَضَ الإسرائيليّونَ الحصارَ على المخيّمِ، استعداداً لاقتحامِهِ وبدأوا بقصْفِهِ، وفجأةً رأوا الأعلامَ البيضاءَ ترتفعُ فوقَ المنازِلِ القريبةِ من أحدِ مداخلِ المخيّمِ.

إنّهم يستسلمون!

غريبة!

تقدّمَتِ المدرّعاتُ الإسرائيليّةُ في حَذَر. وعندما لم تلقَ أيّ مقاومة، شقّت طريقَها ببطء وسطَ طرقاتِ المخيم الضيقة، وعندَ أحد المنعطفاتِ، فُوجِئَ الغزاةُ أمامهم بسيّارة جيب تحمل مدفعاً رشاشاً، وقف خلفَهُ شابٌّ فلسطيني. وفي اللحظة التي انطلقت فيها طلقات المدفع تحصُدُهم حصداً، انهالت عليهم القنابلُ اليدويّة من مداخلِ البيوتِ وأسطحِها.

انسحب الإسرائيليّون حامِلينَ قتلاهم وجرحاهم ، ومِن مسافةٍ آمنةٍ صبّوا نيرانهم على المخيّم ، فأحالوا بيُوتَه إلى أنقاضٍ . وحاولوا اقتحامه عدّةَ مرّاتٍ ، دُون جدوى . واستمرت محاولاتُ الاقتحام طُولَ الليلِ ، وصَدْرَ النّهارِ التّالي . وأخيرًا تمكنوا من اقتحامِهِ من عدّةِ مداخلَ في وقتٍ واحدٍ .

وأدركَ قادةُ المقاومَةِ أنّ المخيّم سيَقعُ في يدِ العدوّ ، فأمرُوا رجالَهم بمُغادرتِهِ ، والالتحاقِ بميادينِ القتالِ الأخرى .
وقبل انسحابِهم ، أعدُّوا للعدوّ مفاجأة ...

قسّم الإسرائيليون قوّاتهم إلى مجموعاتٍ صغيرة، تتألف كلٌّ منها من خمسةِ جنودٍ ومدرّعةٍ واحدة. وذلك كي يتمكنوا من الانتشار في طرقاتِ المخيمِ الضيقةِ، وإحكامِ السيطرةِ على أنحائه. وبينما كانت إحدى المصفحات تتقدم في حذر، رأى جنودُها صبيّين يلوّحان من بعيدٍ في ودّ. ولم ينتبه الجنودُ إلى «برهان» الذي اختفى خلف زميليه.





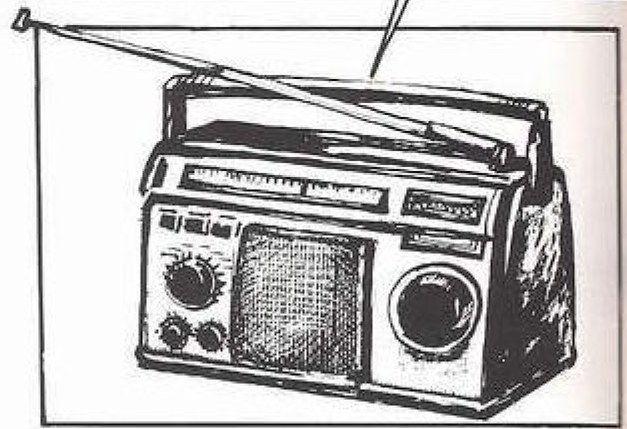
اقترب الإسرائيليون بعربتهم المدرّعةِ من الصبيّين، وقد تخلّوا عن حذرهم. وفجأة جرى الصّبيّان مبتعدين، كاشفَين عن «برهان» الذي كان حاملاً قاذفَ الـ«آر. بي. جي» المضادّ للدبابات فوق كتفه.

ولم يُتَح للإسرائيليين أن يتبيّنوا ما حدث. فقد فجّرت قذيفةُ الـ«آر. بي. جي» التي أطلقها «برهان» المدرّعةَ بمَنْ فيها. وعندما هُرعت بقيةُ المدرّعاتِ إلى مكانِ الحادثِ، لم يجدوا أثراً للفدائيّين الصّغار.



وفي الطرفِ الآخرِ من المخيّم ،
كانت إحدى المصفحاتِ الإسرائيليةِ
تجتازُ الشارعَ عندما اعترضَتْها درّاجةٌ تُقلُّ
صبيّيْن. وفوجئَ الإسرائيليّون بأن الصّبيَّ الجالسَ في
الخلفِ يحملُ قاذفَ الـ «آر. بي. جي» فوق كتفِه. وقبلَ أن
يُدركوا ماينوي عملَه ، كان الصّبيُّ قد ركع على الأرضِ في وضعِ
الاستعدادِ ، ثمّ أطلق عليهم قذيفةً أشعلتِ النارَ في عربتِهم.
وفي سُرعةٍ خاطفةٍ ، قفز الصّبيُّ بقاذفِهِ فوقَ الدرّاجةِ ،
التي لم تلبثْ أن اختفَت في لمحِ البصَرِ ، كأنّما انشقّتِ
الأرضُ وابتلعَتْها.

تعدّدتِ «المفاجآتُ المزعجةُ» التي تعرَّضَتْ لها
قوّاتُ الاحتلالِ داخلَ المخيّمِ وخارجَه.
وفي البدايةِ تجاهلت وَسائلُ الإعلامِ الإسرائيلية هذه «الحوادث»
رغبةً منها في الإبقاءِ على صُورة الجيشِ الإسرائيلي
«الذي لايُقهر». لكنّها لم تلبثْ أن اضطُرّت للخُروج عَن
صَمتها في ١٦ يونيو/حزيران: "حَربُ لبنان التي قلنا إنّها
لن تستمرَّ أكثرَ من ثمانٍ وأربعينَ ساعة ، دخلتْ يومَها
العاشرَ ، وهي تزدادُ ضراوةً وعنفًا يومًا بعدَ يوم ، وتزدادُ
خسَائرنا فداحةً. هنا راديو الجيش الإسرائيلي".









وفي يوم ٢١ يونيو/حزيران بعد خمسةِ أيام، ذكرَت إذاعةُ الجيشِ الإسرائيلي مايلي: "..وقد وقع الحادثُ في مدينة «صُور»، قبل ظهر أمس، وتفاصيلهُ أنّ الجنديَّين دخلا إحدى البقَّاليّات للشراء، فوضع أحدُهما سلاحَه جانبًا، وبينما هما يتبادلان الحديث مع صاحب البقالية، دخل طفلٌ فلسطيني في العاشرةِ من عمره بحجّة الشراء. وعند ما شاهد سلاحَ الجندي فوق المنضدة، انقض عليه وحمله في يده، ثم أطلق النارَ على الجنديّين، فقتل أحدهما في الحال، وأصابَ الثاني بجراحٍ مختلفة، ثم لاذ بالفرار. هذا وتقوم دوريّات جيشنا بتمشيط المنطقة بحثًا عنه".

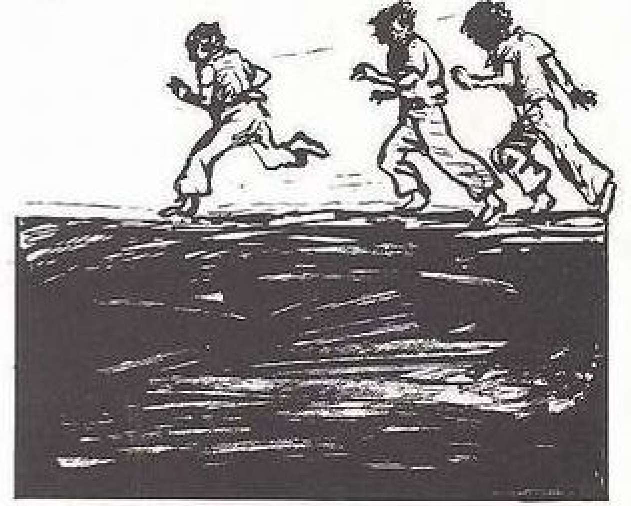
لم تعثر دوريات الجيشِ الإسرائيلي على أثرٍ لبطلِ حادثِ البقالية. لكنّها أمسكَتْ بـ«برهان» و«صالح» ورفيقٍ آخرَ لهما! وكان الثلاثةُ يتسلّلون بأسلحتِهم عبرَ أحدِ الحقولِ عندما ألفَوْا أنفسَهم محاصَرين بدوريّةٍ إسرائيليّةٍ تتألّفُ من عشرةِ أفرادٍ. وقبل أن يتمكنَ الفدائيون الصّغارُ منَ المُقاومةِ، جرّدهم الإسرائيليّون من أسْلحتِهم، ثمّ قيّدوا أيديَهم، وعصبُوا أعينَهم، واقتادوهم إلى مركزِ قيادتِهم. وهناكَ بدأَ التحقيقُ معهم.





كان الشكُّ قد بدأ يساوِرُ الغزاةَ أنّ الأطفالَ الثّلاثةَ ليسُوا بأطفال ، وإنّما مقاتلون أشِدّاء مؤمنونَ بعدالةِ قضيّتِهم ، ولهذا يصعبُ إرغامُهم على شيْء.

وكأنّما أراد الأبطالُ الصّغارُ أن يؤكّدوا لهم صِحّة شكوكِهم . فلمْ تمْضِ ساعاتٌ حتّى أبلغ الضّبّاطُ قائدَهم الجنرال «أميردروري» أنّ «الأطفالَ» اختطفوا أسلحةَ حرّاسِهم ، وقتلُوا واحداً منهم ، وأصابوا الآخرين بجراحٍ خطيرةٍ ، ثم اختفوْا !



واضطرّ الغزاةُ أخيرًا ، للاعترافِ رسميًّا بما حاولوا تجاهُله طويلاً .

ففي يوم ٢٨ يونيو/حزيران ١٩٨٢ ، نشرتْ صحيفة «جيروساليم بوست» الإسرائيليّة صورةَ الفدائيَّين الصّغيرين «برهان أحمد الطيب» (١٢عاما) ، و«صالح ماريا خليل» (١٣عاما).

وبقلوبٍ واجفةٍ ، طالع قرّاءُ الصّحيفةِ العنوانَ الذي ظَهرَ أسفلَ الصّورة :

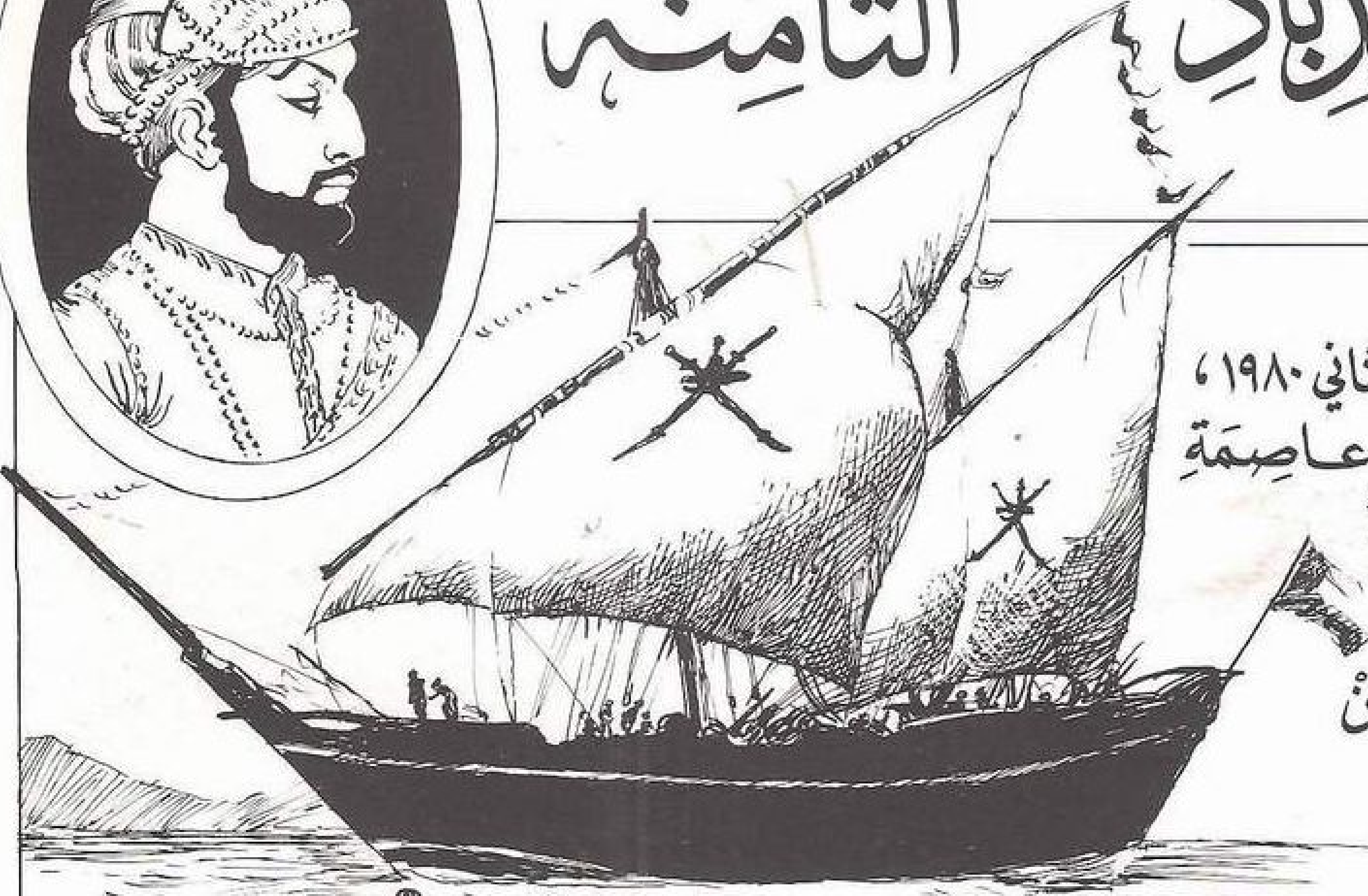
أطفال الـ «آر. بي. جي»

وكانت تلكَ المرّةَ الأولى الّتي يُستَخدَم فيها هذا التعبير .

ومُنذُ تلك اللّحظةِ ، أصبحتِ الإشارةُ إليه كافيةً لبعثِ الرّعب في قلوبِ المُعتَدين .



رِحلةُ السِّندبادِ الثّامِنةُ



فِي ٢٣ من نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٠، أبحرَتْ مِن ميناءِ «مَسقط» عاصِمةِ «عُمان» سفينةٌ غريبةُ الشّكلِ تسيرُ بالأشرِعةِ، وتبدُو كأنَّها خارجةٌ مِن أعماقِ التّاريخ !!

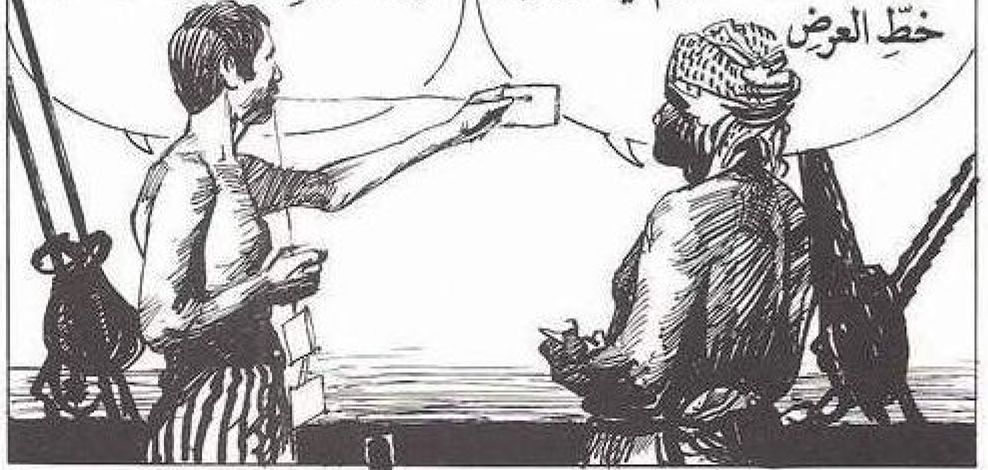
وَالواقِعُ أنّ هيكلَها صُنِعَ مِنْ ألواحٍ خشبيّةٍ خِيطَتْ بحِبالٍ مِنْ أليافِ جوزِ الهندِ، تمامًا كما كانَ العربُ يَصْنعونَ سُفُنَهُم قبلَ أكثرَ مِن ألفِ عامٍ.





كانتِ السَّفينةُ منطلقةً في رحلةٍ غيرِ عاديّةٍ، تقتفي خلالَها خُطَى السّندبادِ البحريّ في رحلاتهِ السّبعِ عبْرَ البحارِ السّبعةِ، ولهذا حملَتِ اسمَ «صحار» البلدةِ العُمانيّةِ الّتي ينتسِبُ إليها بطلُ ألفِ ليلةٍ وَليلةٍ الأسطوريّ.

وَأرادَ القبطانُ الأيرلنديِ «توم سيفرين» أن يتقمّصَ شخصيّةَ السّندبادِ ، فجرّبَ الاستعانةَ بجهازِ «الكمال» الذي استخدمَه العربُ القدماءُ .



وَبحثَ «سيفرين» عن الإجابةِ في كتابِ الملاّحِ العربيِّ القديمِ ابنِ ماجد «الفوائد في أصولِ البحرِ والقواعِدِ».





وَبلغتِ السّفينةُ السّاحلَ الهنديَّ بعدَ شهرٍ ونصفٍ . ثمَّ اتّجهَتْ إلى «سيريلانكا» أو «سيرنديب» التي دارت بها أشهرُ مغامراتِ السّندبادِ البحريّ .

وفي ٢٢ من فبراير / شباط ١٩٨١م. أبحرَتِ السّفينة مِن «سيريلانكا» متّجهةً إلى «سومطرة».

إذا ساعدَنا الحظُّ بلغْنا مضيقَ «ملقا» في أقلَّ مِن شهْر.

كلُّ شيْءٍ يتوقَّفُ على هبُوبِ الرّياح الجنوبيّةِ الغربيّة في موعِدِها.

لكنَّ الرّياحَ تأخّرتْ...

منذ ثلاثةِ أسابيع ونحنُ لا نكادُ نتحرّكُ مِنْ مكانِنا

أليس مِنَ الأفضَلِ أن نعودَ أدراجنا إلى أقرَبِ جزيرة ؟

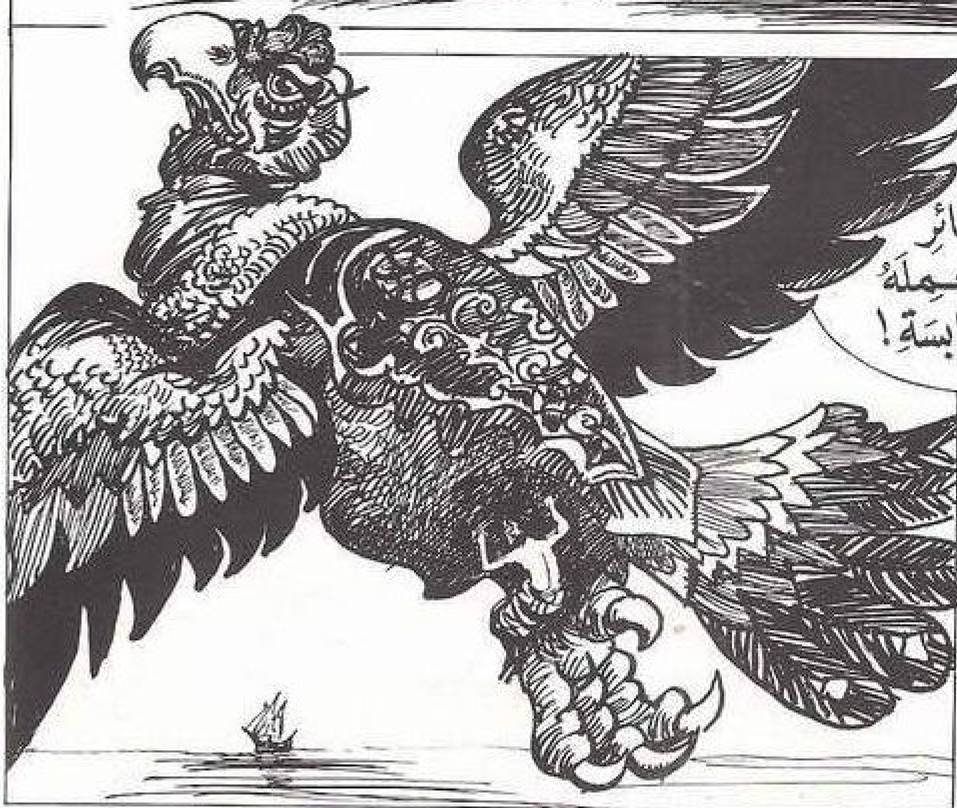
عمّا قليلٍ سَندخلُ منطقةَ السّكونِ الخطِرةِ التي تحتجزُ السُّفنَ شهورًا طويلة..

أرى أن نتوقَّفَ حيثُ نحنُ ونخفّضَ استهلاكَنا مِنَ المياهِ والطّعامِ.

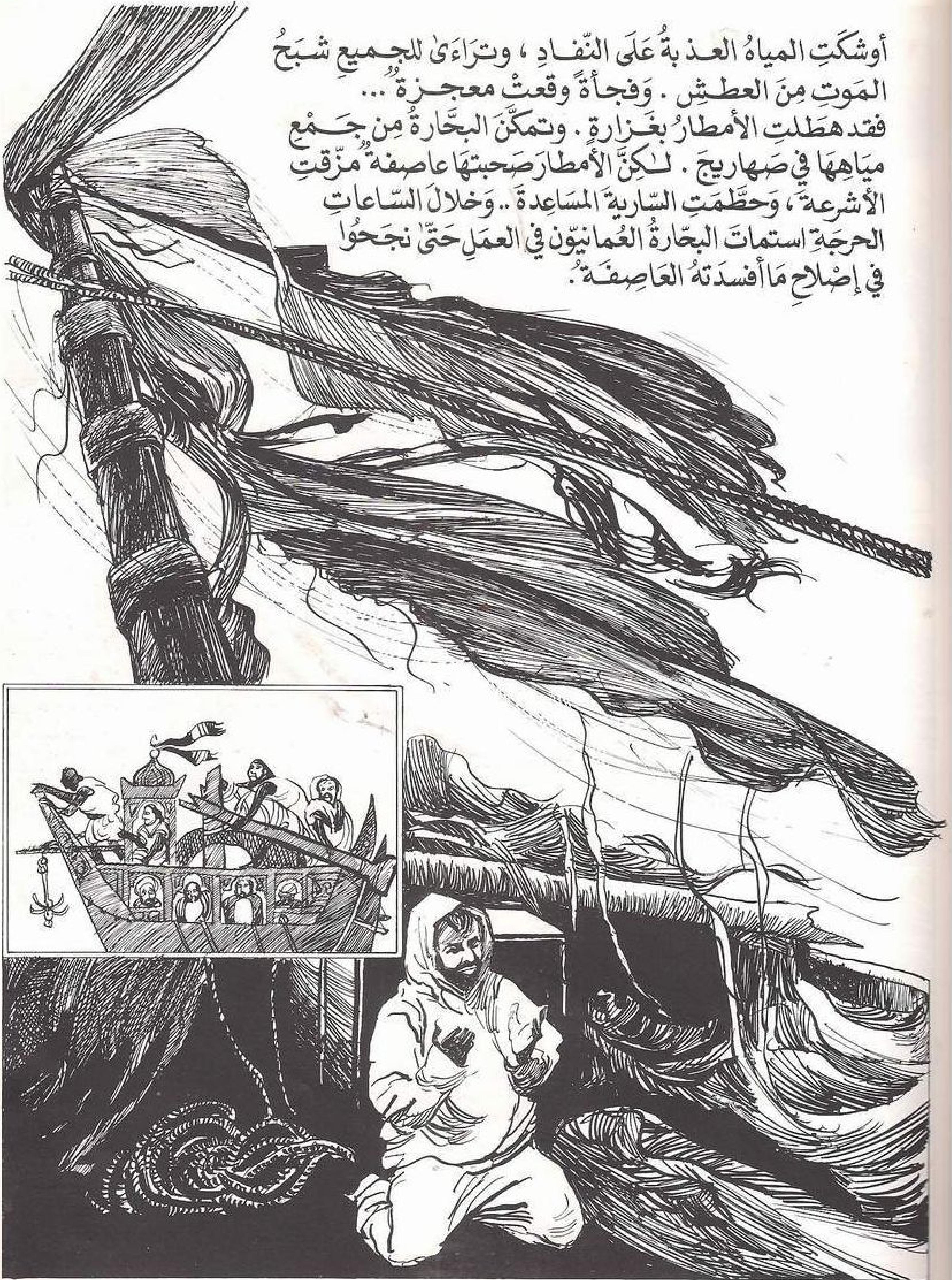
مضتِ الأيامُ ببطءٍ .. وعِندما حلَّ الأسبوعِ الثالثُ مِن شهرِ مارس / آذار ، كانت «صحار» مُستلقيةً على سطحِ بحرٍ في غايةِ الهدوءِ والسَّكينةِ على بعدِ مئاتِ الأميالِ مِن أيِّ شاطئ ..







أوشكَتِ المياهُ العذبةُ على النّفادِ ، وتراءى للجميعِ شبحُ الموتِ مِنَ العطشِ . وفجأةً وقعتْ معجزةٌ ... فقد هطلتِ الأمطارُ بغزارةٍ . وتمكّنَ البحّارةُ مِن جمْعِ مياهِها في صهاريجَ . لكنَّ الأمطارَ صحبتها عاصفةٌ مزّقتِ الأشرعةَ ، وحطّمتِ السّاريةَ المساعِدةَ .. وخلالَ السّاعاتِ الحرجةِ استماتَ البحّارةُ العُمانيّونَ في العملِ حتّى نجحُوا في إصْلاحِ ما أفسدَتهُ العاصفةُ .



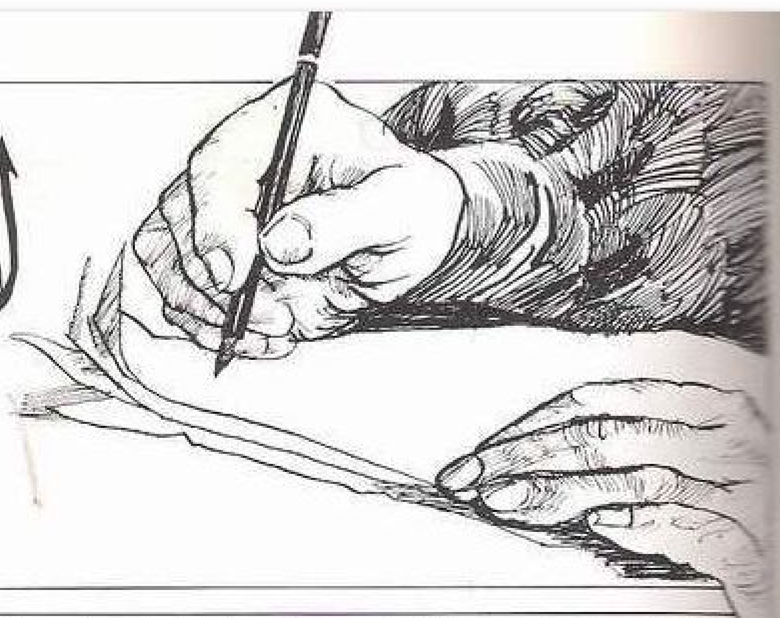
وأخيرًا.. هبّتِ الرياحُ الموسميّةُ الجنوبيّةُ الغربيّةُ في صباحِ الخامسِ من إبريل/نيسان. وانزلقتِ السفينةُ من جديدٍ فوقَ مياهِ المحيطِ متجهةً إلى مضيق «ملقا»، ولم تلبثْ أن عبرَته. وولّتْ وجهَها شطرَ الشمالِ.





لكنّ المرحلةَ الأخيرةَ من رحلةِ السّندبادِ الثامنةِ مرّتْ بسلامٍ، فقد أفلتتْ «صحار» من الإعصارِ الرهيبِ، وبلغتِ الشاطئَ الصّيني في ١١ يوليو/تموز ١٩٨١ بعدَ سبعةِ شهورٍ في البحرِ، وبعدَ أن أثبتتْ أنّ العربَ عرفوا الطّريقَ البحريَّ إلى الصّينِ قبلَ الأوربيّين بسبعةِ قرونٍ!!





لابدَّ أن يأتي يوم

في صباح أحدِ الأيام ، كان الكاتبُ الروسيُّ العظيم «ليف نيكولايفتش تولستوي» (١٨٢٨-١٩١٠) ، في غرفةِ المكتبِ بضيعتِه ، يتصفّح بريدَه اليومي الضخم بمعاونةِ سكرتيرِه



وقبلَ أن يتمكن «تولستوي» منَ التعليق اقتحمتْ زوجتُه الغرفة ..






إنّهُم يَسرِقُونَ بدافعِ الحاجةِ ، فكيفَ أعاقبُهم ؟ المجرمُ الحقيقيُّ هو أنا ، لأنَ عِندي فائِضًا مِنَ الطعامِ وغيري لا يملِكُ شيئًا.


لقد ضِقتُ ذرعًا بهذهِ الهلوسة

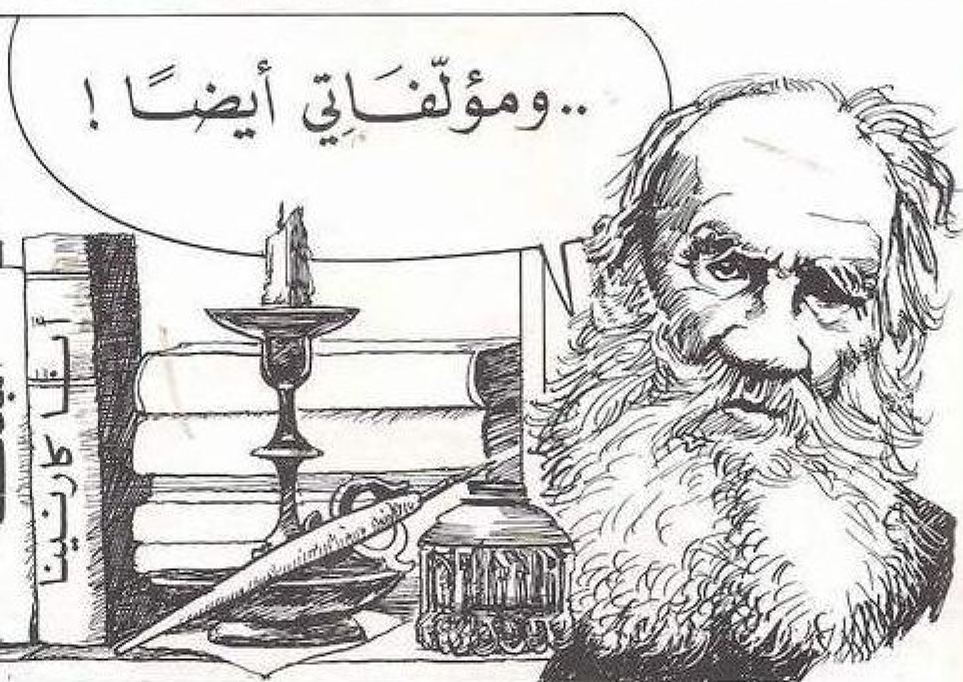

لم أعُدْ أستطيعُ الاحتمالَ ، إنّه يعملُ في الأرضِ مِثلَ الأجراءِ ، ويأكلُ معهُم .. ويصنعُ لهمُ الأحذيةَ ، بل ويُريدُ أن يتنازلَ عنْ أملاكِهِ لهُم..


إنها لا تهتمّ بغيرِ جمعِ المالِ .. أمّا أنا فوحدتي تتزايدُ يومًا بعدَ يوم..


الطبيعةَ هِي الرفيقُ الوحيدُ المخلِصُ إلى الأبَد ..


والعَمَلُ هوخَلاصُ الإنسَانِ

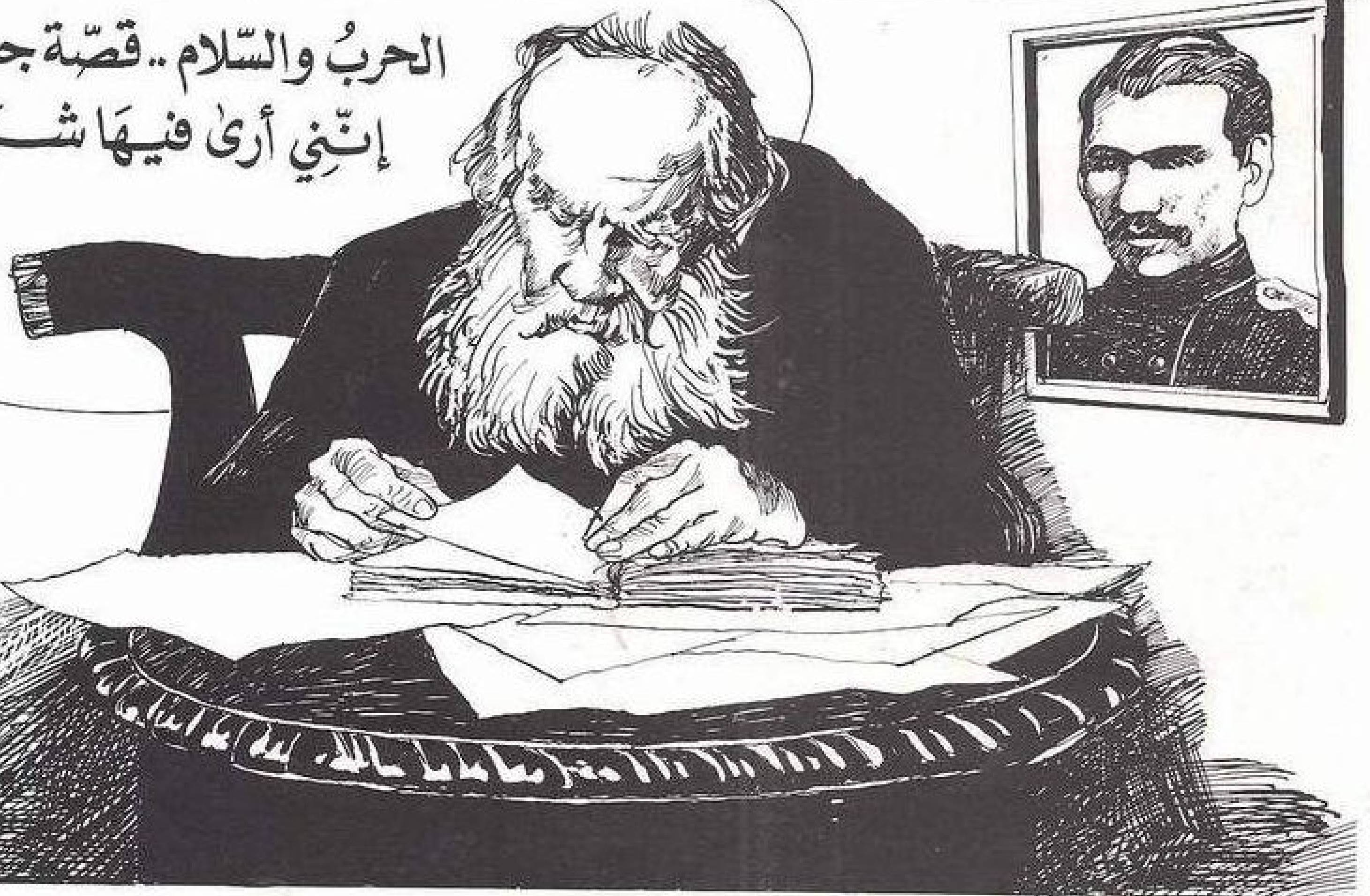

يدَايَ..أثمنُ ما أملكُ ..


.. ومؤلّفَاتِي أيضًا !
الحرب والسلام
لا أستطيع السكوت
البعث
آنا كارنينا

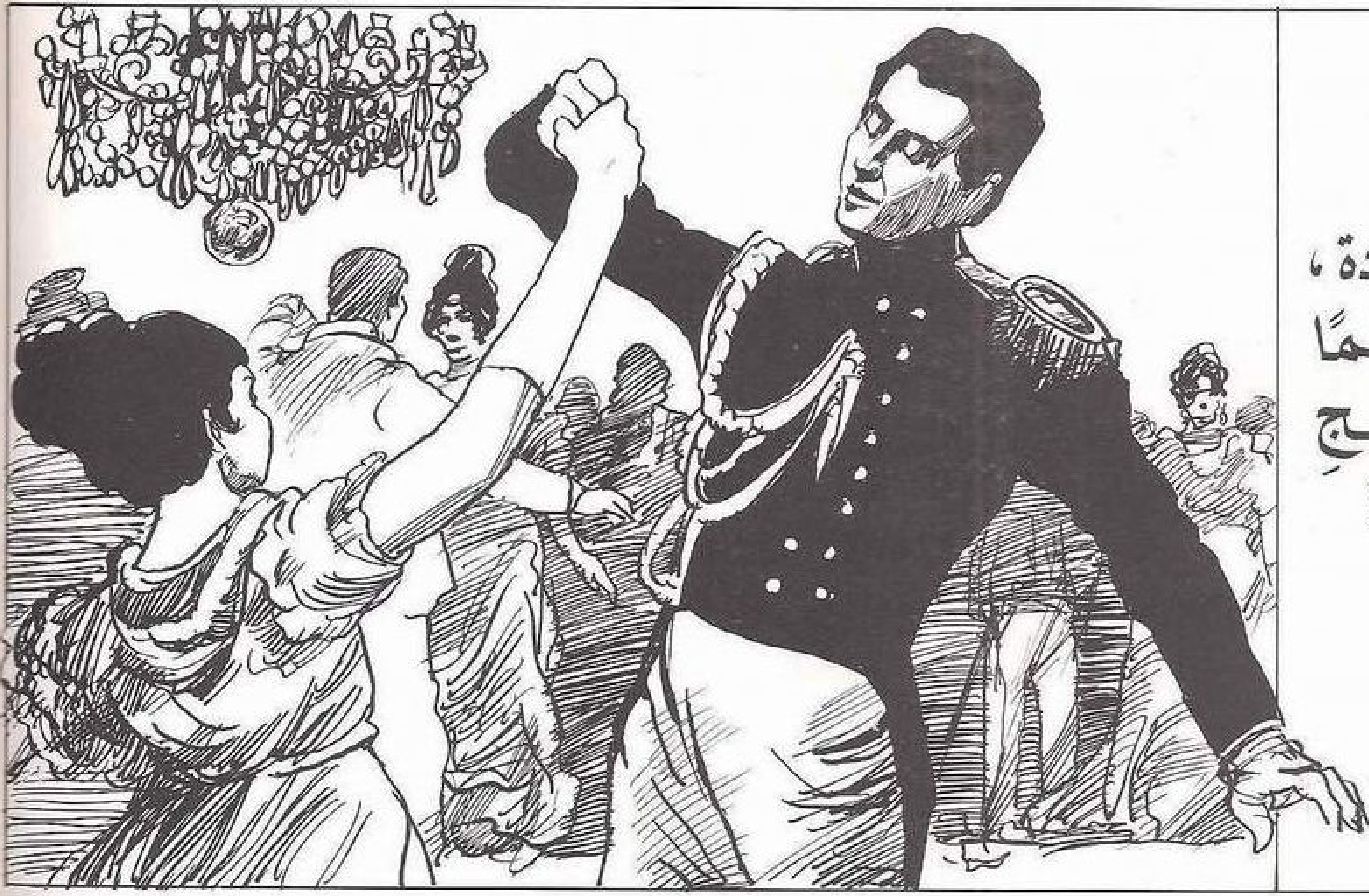

إلى «ليف نيكولاييفتش تولسْتوي»
مفخـرة روسْيَا
من عمال مصنع النسيج


وبعد أيام..
لم يظهر السيد منذ فترة
لعله يكتب
الأرجح أنه يصنع حذاء!
إنه حقاً غريب الأطوار!


إنه منهمك في القراءة..
ولا يريد أن يقابل أحداً!


الحرب والسلام.. قصة جيدة..
إنني أرى فيها شبابي..


الفلّاحون والفقراءُ هم الّذين يتحملون ويلاتِ الحُروب
وتداعتْ في ذِهنِ الكاتبِ
العَظيم .. الخواطرُ التي
أثارتْها روايتهُ الخَالدة ..



أمّا نحن السّادة ،
فنستمتعُ دائمًا
بكافّةِ مباهِجِ
الحياة !

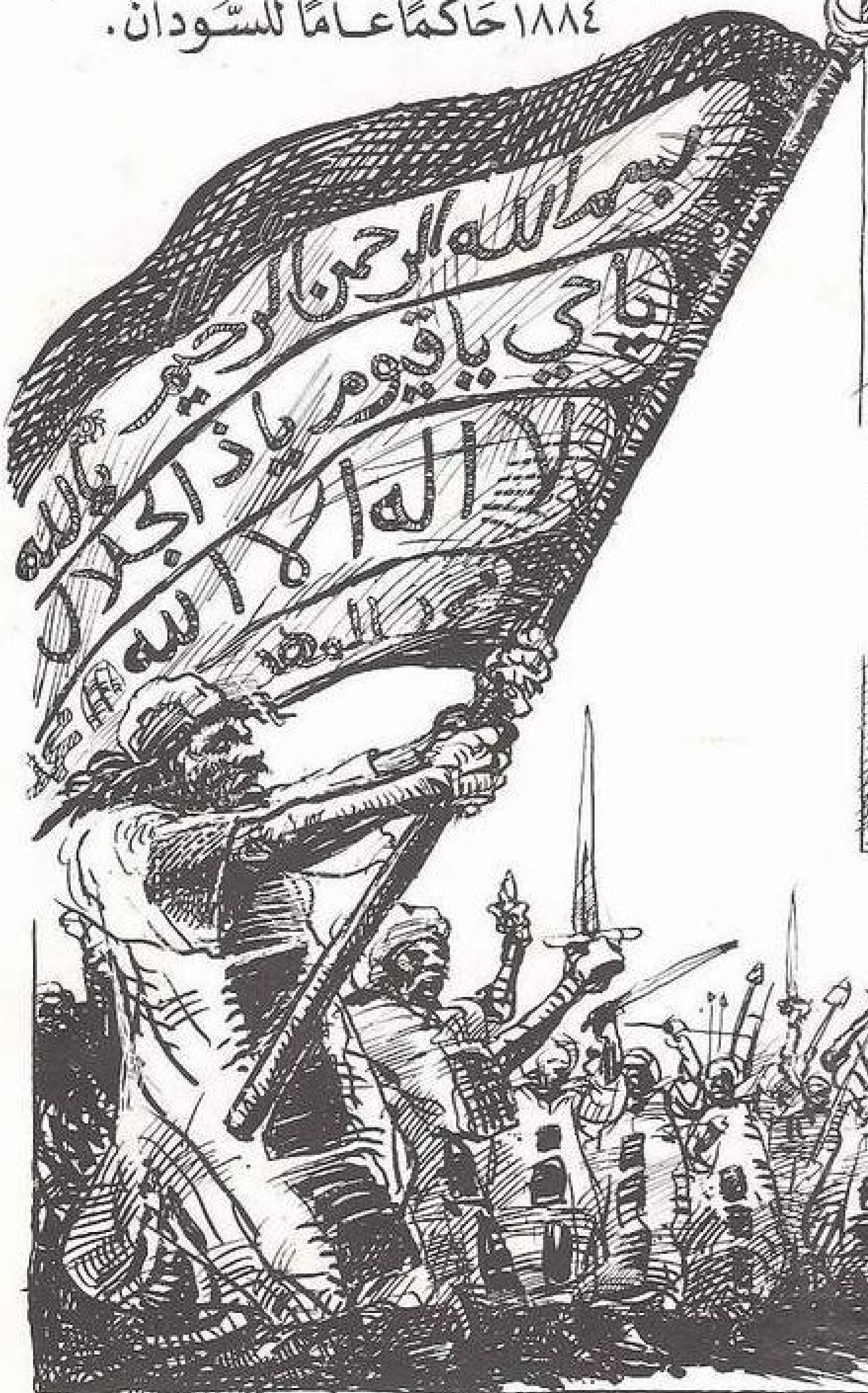
لابدّ أن يأتيَ يومُ يتحرّر فيهِ الإنسان
من كافةِ أشكالِ الأنانيةِ ، والطمعِ ،
والعُنفِ ، والطّغيانِ ،
والحَربِ ، والجُوعِ !



الخُرْطومُ بِخَيْرٍ!

لَمْ يَكَدِ القرنُ التاسِعَ عشَرَ يقتربُ مِنْ نهايتِهِ حتى كانَ العالَمُ الإسلاميُّ يَغْلِي، وَيتطلّعُ إلى الخلاصِ مِنَ الحكمِ العُثمانيِّ الرَّجعيِّ. وَنضجَتْ عناصرُ الثورةِ في وادِي النّيلِ، فالتفَّ المِصريّونَ حَوْلَ قائدٍ عسكريٍّ مِنْ أبناءِ الفلّاحينَ هو «أحمدُ عُرابي»، وَتجمّعَ السّودانيّونَ خلفَ «محمّد أحمد بن عبد الله»، وَهوَ شابٌّ متصوّفٌ ينتمي إلى أسْرةٍ مِن صُنّاعِ المراكبِ، لَمْ يلبثْ أنْ أعلنَ الجهادَ ضِدَّ النظامِ التركيِّ المِصريِّ في سنة ١٨٨١م.

وانتشرَتْ دعوةُ الثّائرِ السّودانيِّ الّذي أطلقَ على نفسِهِ لقبَ «المهديّ»، بِسُرعةٍ، وحقّقَ أنصارُهُ نجاحاتٍ متتابعةً. وخلالَ ذلكَ كانَ الإنجليزُ قد تمكّنوا مِن احتلالِ مصرَ في سنةِ ١٨٨٢. وَنفَوْا «عُرابي» إلى جزيرةِ «سيلان». وعندما خشُوا أن يمتدَّ تأثيرُ «المهديّ» إلى مصرَ أرسلوا إليهِ قوّةً بقيادةِ الجنرالِ «هكس»، هزمَها الثوارُ شرَّ هزيمةٍ. وَبدأَ «المهديُّ» يستعدُّ للزّحفِ على العاصمةِ الخرطوم. وقرّرَتِ الحكومةُ الإنجليزيّةُ أنْ ترسلَ الجنرالَ «غوردون» لمعالجةِ الموقفِ، فعيّنَتْهُ في يناير/كانون الثاني ١٨٨٤ حاكمًا عامًّا للسّودان.









الدفاع عن الخرطوم ليس مستحيلاً، فالنيل يحميها من الشمال والغرب، وفي «أم درمان» حامية قوية. نقطة الضعف هي الجنوب حيث الصحراء المكشوفة

أم درمان

النيل الأبيض

النيل الأزرق

قصر الحاكم العام

الخرطوم

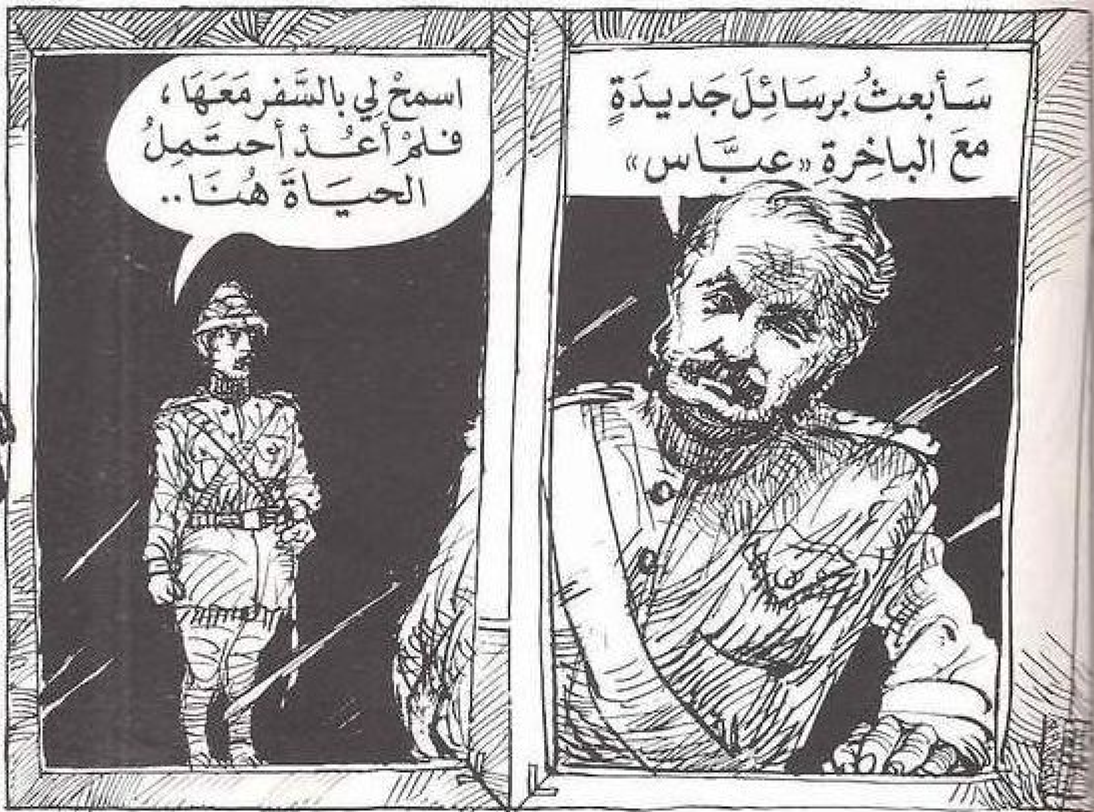
وأمر «غوردون» بحفر خندق من النيل الأبيض إلى النيل الأزرق

وَمِنْ سطحِ القَصْرِ
تَابعَ «غوردون»
حُشُودَ الأنصَارِ
وَهِي تتجَمَّعُ
لِحِصَارِ المدِينَةِ.

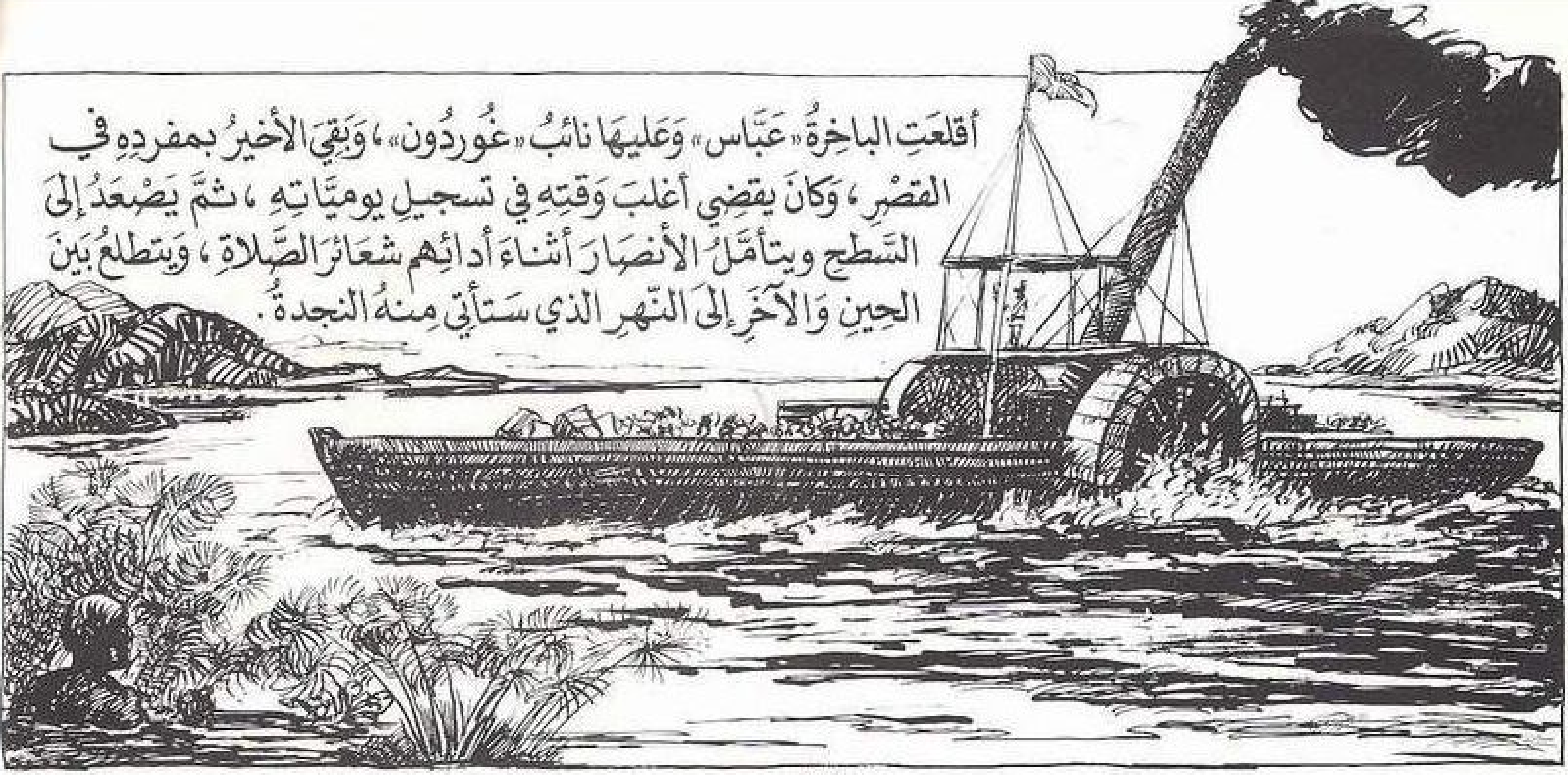




ومرّتِ الأيامُ بطيئةً ثقيلةً، وامتدّتْ إلى
شهورٍ دُونَ أن تصِلَ النّجدة.. وفي شهر
أغسطس/آب جاءتِ الأنباءُ بأنّ
المهديَّ يزحفُ نحوَ الخرطومِ على
رأسِ مِئتي ألفٍ مِنَ الأنصارِ..









ولَمْ يكُنْ يعرفُ أنَّ الباخرةَ قدْ سقطتْ في يدِ الأنصارِ قبْلَ أنْ تبلغَ الحدودَ المصريّةَ وأنَّ نائبَهُ قدْ قُتِلَ. أمّا النجدةُ الإنجليزيةُ فكانتْ تقتربُ مِنْ منطقةِ الشّلالاتِ في بُطءٍ وحذرٍ.

كانَ وقعُ الهزيمةِ قاسيًا، وأحدثَ قُربُ وصولِ الحملةِ الإنجليزيةِ اضطرابًا في صفوفِ الأنصارِ

رأيتُ - أمْسِ - في المنامِ أنّنا تركْنا الخرطومَ.. وهاجرْنا إلى «كُردفان».






وَفِي هَـذِهِ الأَثْنَاءِ ..
لاتقتلوني .. طلبَ مِنِّي «غوردون باشا» أن أحمِلَ هـذِهِ الرِّسالَةِ إلى الإنجليز في «أبوطليح»


الرِّسالَةُ تقولُ: "اطمئِنُّوا... الخرطوم بِخَيرٍ". والتَّوقيعُ «غوردون».




أشهدُ ألاّ إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وأنكَ خليفةُ رسُولِ اللهِ. إنَّني أحمِلُ رسالةً أخرى شفويّةً إلى الأعداءِ نبلّغهُم فيها بأنَّ الخرطومَ لم تعُدْ قادرةً على الصّمُودِ.


فِي هذا المكانِ مِنَ الخندقِ انحسَرَتْ مِياهُ الفيضانِ، وَتركتْ جزءًا مِنَ الأرضِ الطينيَّةِ يُمكنُ عبورُها بسُهولةٍ...

الله أكبر

وفي ٢٥ من يناير/كانون الثاني، اتخذ مجلس الأنصار قراره بالهجوم. وزحف على المدينة خمسون ألفاً فجر اليوم التالي.







وبلغتِ الحملةُ الإنجليزيةُ مشارفَ الخرطوم بعدَ ظهرِ يوم ٢٨ من يناير/كانون الثاني. وعندما أدركَ قائدُها الموقفَ عادَ أدراجَهُ. وبعدَ يومَين دخلَ «المهديّ» الخرطومَ في مَسيرة حافلةٍ مُعلنًا انتصارَ الثَّورةِ الشعبيّةِ الكُبرى.

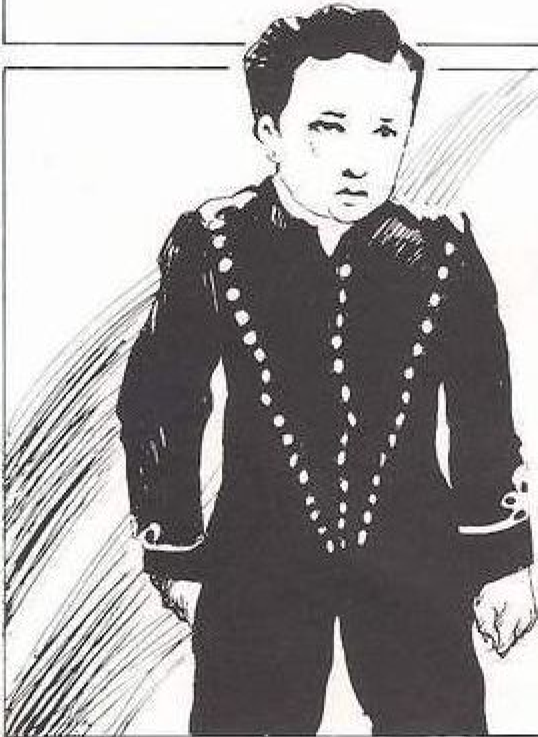
لا إله إلا الله
محمد رسول الله



الصُّعلوكُ العبقريُّ !



إنّ الفضلَ يرجعُ إلى أُمّي المسكينةِ الّتي تحمّلتِ الكثيرَ مِنْ أجلِ تربيتي أنا وأخي . كانتْ مُمثّلةً جيدةً ، فعلّمتني الرّقصَ والتّمثيلَ . وفُزْتُ بدورٍ في إحدى المسرحيّاتِ وعُمري ١٢ سنةً .





لكنَّ أُمّي لم تلبثْ أنْ أُصيبتْ بالجُنونِ. ولم تُحقّقْ لي الأدوارُ التي قمتُ بها على مسارحِ لندن ما كنتُ أصبُو إليهِ من نجاحٍ... فارتحلتُ إلى أمريكا سنة ١٩١٠، وذاتَ يومٍ -وكنتُ في الثالثةِ والعشرينَ مِن عُمري- تلقيتُ عرضًا بالتمثيلِ في السّينما.



وَقفتُ حائرًا أمامَ الملابسِ المختلفةِ، وفكّرتُ في أُمّي.. في الفقرِ الّذي رأيتُهُ يضحك ويبكي في شوارعِ نيويورك.. وفي دَوْرٍ تخيّلتُهُ -مرّةً- لصُعلوكٍ يُصبِحُ مليونيرًا!







هكذا وُلِدَتْ شخصيَّة
الصُّعلوك.. أفّاقٌ ومُهذَّب.
شاعِرٌ وحالِم.. إنسانٌ
وَحيدٌ يتعطَّشُ إلى
الحنانِ والحُبِّ والمغامرةِ،
وفعْلِ الخير، ويُثيرُ
الضَّحِكَ دائمًا بمحاولتِهِ
اليائسةِ لأن يبدُوَ
شخصًا مُحْترَمًا!



في ذلكَ الوقتِ لم تكنِ السّينما قد عرفتِ الصّوْتَ بعدُ، وكانتِ الأفلامُ تُصوّرُ دُونَ قِصصٍ مُعدَّةٍ، فكانَ على شارلي أن يخلُقَ كُلَّ شيْءٍ أمامَ الكاميرا. وأفادتهُ عبْقريّتُهُ في ارتجالِ الحركاتِ. فنجحتِ المشاهِدُ التي ابْتكرها. وذاعتْ شهرتُهُ، فقرَّرَ أن يُخْرِجَ أفلامهُ بِنفسِهِ.











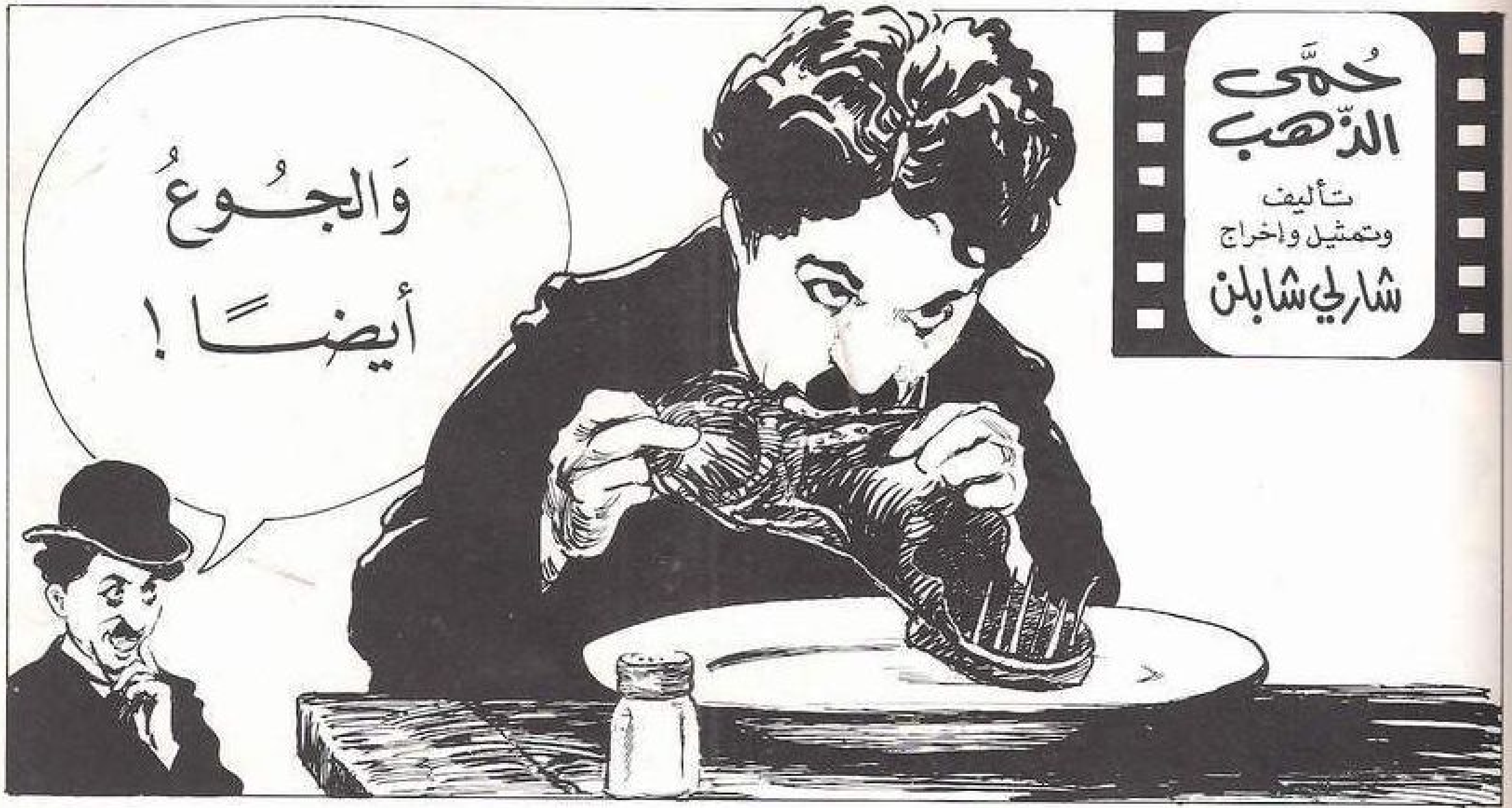


وَحقّقَ فيلم «الصّبيّ»
نجاحًا هائلًا..
كما تنبّأ شارلي..
وتتابعتْ أفلامُهُ..

المُلاكمُ
يُمثّلُ القوّةَ
السّاحقة، وعندما
يسْخَرُ منْهُ
الصّعْلوكُ
فإنّهُ ينتصِرُ لكلِّ
الضّعفاءِ والمسْحوقين

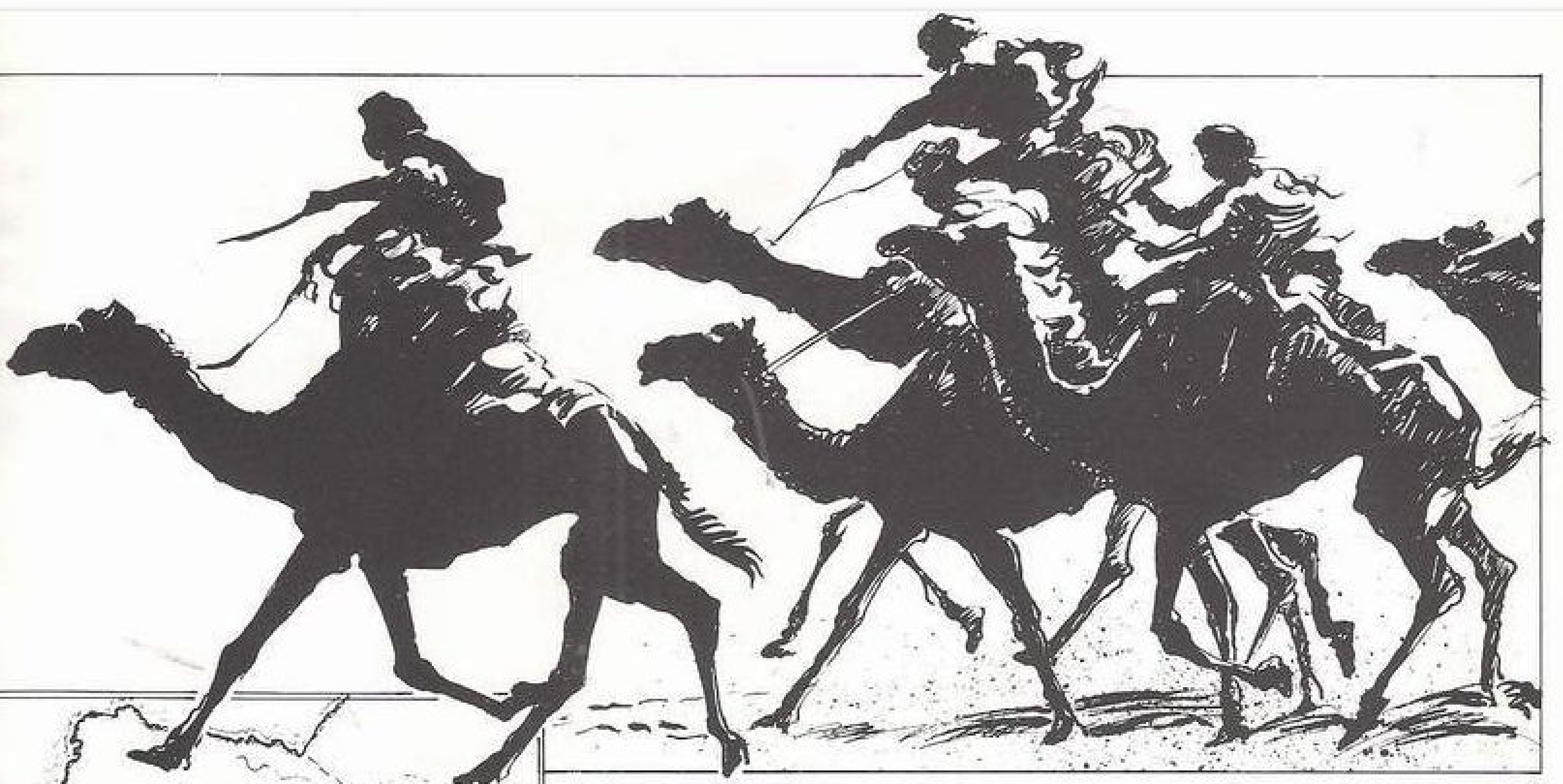


الضَّحِكُ قادرٌ
على فضْحِ
مأساةِ الحرْب.



أتُضحِكُكَ حركاتُ المهرِّج وَأنتَ الذي أضحكْتَ العالَمَ كُلَّه؟!

حقًّا.. لقدْ أضْحكتُ الجميعَ.. منَحتُهُم لحظاتٍ مِنَ السَّعادةِ، وجَعلتُهم يَسْخرُونَ مَعي مِن نقائِصِ البَشَر!!





الملثمون يعبرون البحر



في مُنتصَفِ القرْنِ الخامِسِ الهجريّ كانَتِ الدّولةُ الأمويّةُ الكُبرى في الأندلس قد تحلّلتْ إلى دُويلاتٍ متنازعةٍ .
استَولى الفِرنْجةُ بزعامةِ «ألفونسو» على بعضِها ، وفرضُوا الجِزْيةَ على البعْضِ الآخَر .
وعلى العكْسِ مِنْ ذلكَ كانَ الوضْعُ في الشمالِ الإفريقي ، فقدْ أقامَ «المرابطونَ» -الذين كانُوا يتّخذُونَ اللّثامَ - دولةً قويّةً بزعامةِ «يوسُف بن تاشفين» حققَتْ للمغرِبِ أوّلَ وحْدةٍ في تاريخِهِ ، نعِمَ في ظِلّها بالاستقرارِ والرّخاء .

إِلَّا أَنَّ أَنبَاءَ الأَندلُسِ كَانَتْ مَصْدَرَ قَلَقٍ دَائِمٍ..

يَبدُو أَنَّ «ألفونسُو» يَستعِدُّ لاجتياحِ الأندلس، فهو يَجمعُ المتطوِّعين مِن فرنسا

أمَّا الأمراءُ فهُم في مُجونِهِم سَادِرُون

وَأمِيرُ «أشبيليّة» «المعتمِد بن عبّاد» ؟

لا يُفيقُ مِنَ الشرابِ إلّا ليؤلِّفَ الأشعارَ

إذا تُرِكُوا وَشأنَهُم فإنَّ الفرنجةَ سيستولونَ على الأندلسِ كُلِّه، وَيُهدِّدونَ المغربَ.

وفي «أشبيلية» - كبرى ممالكِ الأندلس - كانَ الأمراءُ في وادٍ، والشعبُ في وادٍ آخر ..

«ابنُ تاشفين» يطلبُ منّا تخفيفَ الضرائبِ، والإعدادَ لقتالِ الفرنجةِ

واللهِ يا مولاي إنّهُ لطامعٌ في مُلكِنا..

سالَ لعابُهُ بعدَ أن رأى ثراءَ بلادِنا

سمعتُ أنّ «ابن تاشفين» ألغى الضرائبَ الجائرةَ في بلادِهِ

لنطلبْ منهُ العونَ على أمرائنا

نادِ الملوكَ، وقلْ لهم بئسَ الذي أحدثتُم أسلمتمُ الإسلامَ في أسرِ العدا وقعدتُم

مولاي «المعتمد» .. «ابن تاشفين» لا يلبسُ غيرَ الصوفِ، ولا يأكلُ سوى خبزِ الشعيرِ.

لا غروَ أنْ تعلّقتْ بهِ العامّةُ ..

وَبعدَ أسابيع ، في قصرِ «ألفونسو» مَلكِ «قشتالة» ..







وتَقدَّمَ «المرابِطونَ» إلى مَدينةِ «قُرطبةَ»
دُونَ أنْ يلقوْا مقاومةً ..

وبعد أيام .. في «أشبيلية»

سقطت «قرطبة» في يد «المرابطين» .. وهم يقتربون منا..

لم يعد ثمة مفر من الاستنجاد بـ «ألفونسو».

وكان هذا مايتمناه ملك الفرنجة فخرج من الفور لحرب «المرابطين»، لكن تقديرات الحلفاء لم تكن دقيقة

هزمت الفرنجة!

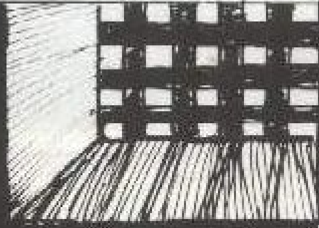
حيا الله «ابن تاشفين»

الموت للكفار

نصر من الله وفتح قريب

هزمت الفرنجة!

ولم يلبث «المرابطون» أن اقتحموا سور المدينة بمعاونة أهلها، وقبضوا على «المعتمد»، وحملوه إلى المغرب حيث أُودع السجن، ثم واصلوا كفاحهم ضد الفرنجة والأمراء المتخاذلين، وأقاموا دولة كبرى وطيدة الدعائم.



أمَّا «المعتمد» فقد قضى السنوات الباقية من عمره رهين السجن يندب حظه التعس..





الإمبراطور يُغنِّي



في سَنة ٦٥م - بَعدَ عامٍ من حَريقِ رُومَا الكَبيرِ - أعلنَ الإمبراطُور «نَيرُون» (٢٧ سنة) عن مسابقةٍ كَبيرةٍ للغِناءِ تُقامُ تحتَ رعايتِهِ.
وَأقبلَ المغنُّونَ على التّدريبِ بحماسٍ استْعدادًا لليَوْمِ المشهُودِ.












استقبلَ الفيلسوفُ «سينيكا» زائريهِ في وُجوم..
أنتَ مُعلّمَ الإمبراطور، وقدْ كنتَ مستشارَه حتى عهدٍ قريبٍ.. وأنتَ الذي أقنعتَهُ بإلغاءِ مُبارياتِ المجالدينِ الدمويّة وبتجنّبِ الحُروبِ..
أنتَ الوحيدُ الذي يستطيعُ إقناعَهُ بالعُدولِ عنِ الغناءِ أمامَ الشّعْبِ..
أبدًا.. فهو لمْ يعُدْ يتقبّلُ أيّ نقدٍ، أو معارضة.


لكنْ لا بأسَ مِنَ التّفكيرِ في حيلة
وفي هذهِ الأثناء..
أينَ التّينُ الجاف؟ ألا تعرفونَ أنّ التفّاحَ يُضِرُّ بالحبالِ الصّوتية؟


وفي الخارجِ كانَ الحرّاسُ يتندّرون
أوشكتْ رأسي على الانفجارِ بسببِ هذهِ الضّوضاءِ
إنّهُ يتدرّبُ على الغناءِ مُنذُ الصّباحِ!
ترم.. ترالم..


على هذه الحال وجده «سينيكا» عندما دخل عليه
لماذا تزعجني الآن ؟ ألا ترى أني في حضرة آلهة الموسيقى والشعر ؟
لقد جئت في خدمة هذه الآلهة يا مولاي


أعضاء المجلس يعرضون أن يضمنوا لكم الجائزة الأولى في المسابقة إذا امتنعتم عن الاشتراك فيها !!
لست في حاجة إلى مساعدتهم، فأنا واثق بالفوز !


أعرف أنهم يريدون أن أكتفي بالغناء داخل القصر ! كيف يمكن ذلك ؟!
الموسيقى التي لا يسمعها أحد لا سحر لها.


لولا تمسك الشعب بي لكنت اعتزلت الحكم وتفرغت للفن !!

الحقوني


رأيتُ أمّي وَزوجتِي الأولى وَأخي بالتّبنّي .. كلّ من أمرتُ بقتلِهم !


مُنذُ مُحاولةِ الاغتيالِ التي تعرّضتُ لها في صِباي .. أُسارعُ بقتلِ كلِّ من يُهدّدُ حياتي !


دائمًا يأتيكَ كابوسٌ عِندما يقتربُ موعدُ ظهورِكِ على المسرح !


وَفي يومِ المسابقة ..
عِندما يُغنّي الإمبراطور صَفّقوا ولا تسمحوا لأحدٍ بمغادرةِ المسرح لأيّ سببٍ !


أشعرُ بأنّي سألِدُ اليومَ !


نيرونُ .. نيرون نيرون
يَحْيا الإمبراطورُ


وَبعْدَ ساعةٍ ..


يَبْدُو أنّهُ سيُغنّي ملحمةً كامِلةً !!

وَمَضتْ سَاعَاتٌ..
ونيرُون مستمرٌ في الغِناءِ!

آه!

انظُروا..
المرأةُ وضَعت طِفلها!!

تَعبْتُ مِن التصْفيق

حذار.. الجنُود يُراقبُوننا

ثُمَّ حَلَّ الظَّلامُ..

بِما أنَّ الوقتَ لمْ يعُدْ يسْمحُ بِسَماعِ بقيّةِ المتبارِين، فقدْ أمرتُ بتأجيلِ إعلانِ النتيجةِ إلى العامِ القادِمِ!

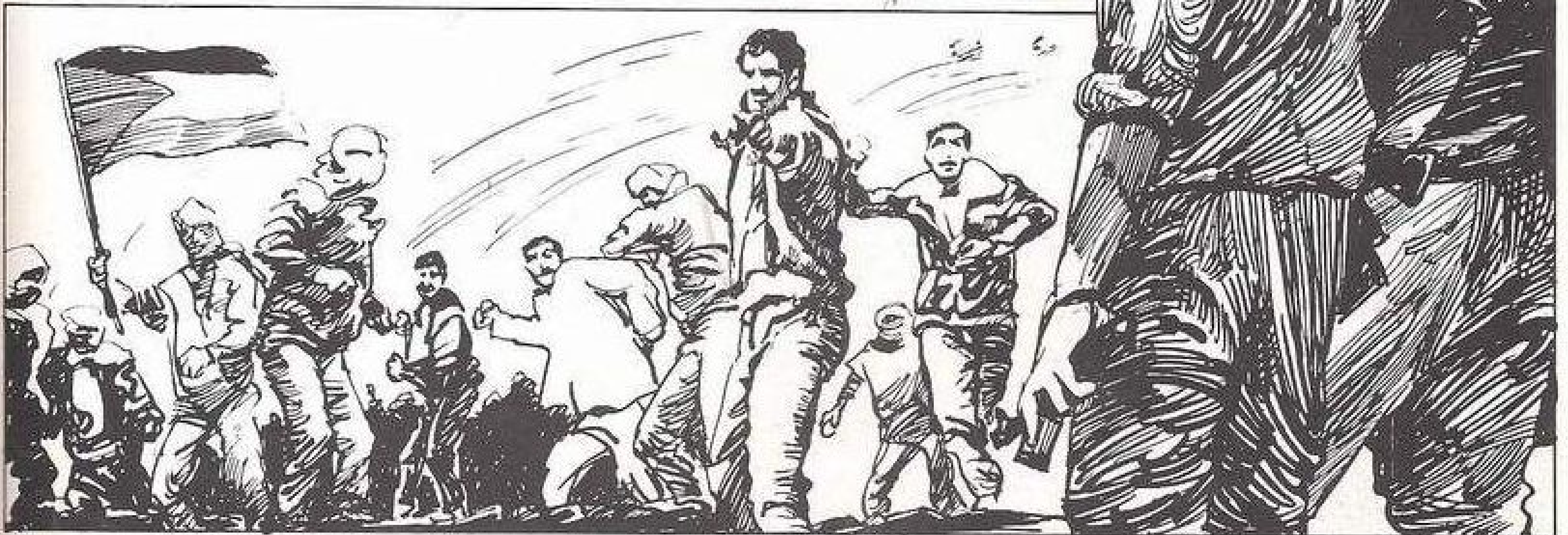
بالطبعِ ليُغنّيَ مَرّةً أخرى!

لكنَّ «نيرُونَ» لمْ يعْدمْ فرصَ الغِناءِ أمامَ الجماهيرِ قبلَ أن ينقلبَ عليْهِ قادةُ الجيْشِ، ويُجبرُوهُ على الانتحارِ..
وَطعنَ «نيرونُ» رقبتَهُ بالخنْجرِ، وَهوَ يُردّدُ: "يالها مِن خسارةٍ كبيرةٍ للفنِّ"!

إنهم يقاتلون بالحجارة

في ٩-١٢-١٩٨٧ ، اندلعت الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة . وتوافد الصحفيون من مختلف أنحاء العالم لمتابعة أغرب أشكال المقاومة وأكثرها استماتة وفاعلية .






يا إلـهي !
إنه طِفلٌ !

اخرجُوا مِنْ بلادِنا !

إنّهُم
يهربُون
أمَام
الحِجَارة !

إحنا ما بنخاف .. خُوفنا
كلّه على الأولاد الصّغار !



وقبلَ أن يتمكنَ أحدُهم من الردِّ ، تصَاعدَت هتافاتُ المتظاهرين ...

إسرائيل NO
P.L.O و P.L.O !

فلسطين وطنُنا
أبو عمّار قائدُنا
يا محتل ارحل عنّا

حجارة.. حجارة..
حتى النصر







ثوري ثوري ياجماهير
الأرض المحتلّة
لا بِنْسالم ولا بِنْساوم
على حبّة رملة

ستبقى الانتفاضةُ حتى يعودَ الوطن أو يُستَعاد

طالعْ لك ياعدُوّي طالع من كلّ بيت وحارة وشارع

PLO

في كل مكانٍ ذهبَ إليه الصّحفي، كانتِ القصّةُ واحدةً: شعبٌ يطالبُ بحريتِه واستقلالِه لايملكُ من الأسلحةِ سوى الحجارةِ. وعدوٌّ مغتصبٌ مدجّجٌ بقنابلِ الغازِ والرصاصِ المطاطيّ والمدافعِ الرشاشةِ .. لكنّه عاجزٌ عن مُواجهةِ الحِجارةِ!



المحتويات

دار الفتى العربي